حـيّ

حــيّ
(رواية)

مصطفى الشيمي

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail . com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحـمـد شـــوقــي
أ. خــــــالد فهمــي
أ.د. فتـــح الله الشــيخ
أ.د. فيــصل يـــونــس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطـمة البــودي

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٤٠٣٨ /٢٠١٣
I.S.B.N 978 – 977 – 490 - 259 – 8

حــيّ

رواية

مصطفى الشيمي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الشيمي، مصطفى

حى: رواية/ مصطفى الشيمى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٨ ٢٥٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٤٠٣٨ / ٢٠١٣

على دين الصليب يكون موتي

الحلاج

الشيخ

القسم الأول

1
البقاء

مُزجت روحك في روحي كما.. تمزج الخمر بالماء الزلال.

استيقظت القرية مذعورة على صرخة امرأة، حملتها الريح فوق أعناق النخيل وأشجار الجميز والسنط والصفصاف، الذي يتمايل على ضفاف الترعة والنيل، وفوق الديار الطينية المتلاصقة ببعضها بعضًا وأبراج الحمام والطاحونة والساقية الجديدة والمهجورة، مرورا بساحة القرية الواسعة وأزقتها وشوارعها حتى اصطدمت في النهاية بجبل عات، جبل الجبانة، حيث الموتى يرقدون باستسلام في مقابرهم المنسيَّة ويرتلون أغنياتهم الحزينة. رددت السماء صدى الصرخة فرددها الموتى بصوتهم الشجي الحزين. واستيقظت الديار وفتحت أعينها، نوافذها وأبوابها، وخرج

الرجال إلى الشوارع قلقين، بينما ناحت نساؤهن مباشرة بعدما خمنّ بفطرتهن المرهفة حجم المصيبة المقبلة، لم يكن التخمين صعبًا على أية حال، فاحتْ أنفاس زائر الليل في هواء القرية البارد.

المسافة بين البيوت والدوّار ما أبعدها، وعلى الرغم من هذا وصلت صرخة ليلى إلى الناس جميعًا و لم تخطئ روْحَ أحد. كانت ليلى جالسةً أمام مرآتها تضع الزينة والكحل عندما دوَّى الطلق الناري في الدوّار فصرخت مفزعة. لم يسمع الناس الطلق الناري أو ربما سمعوا فكذبوا آذانهم لكنهم سمعوا ليلى جيدًا، كانت هي الوحيدة القادرة على انتزاعهم من غفوتهم. والموتى استيقظوا بدورِهم حين سمعوا صوتها، وعادت إليهم أرواحهم للحظةٍ، ففتحوا أعينهم، قبل أن تغلقَ أجفانهم يدُ الموت مرة أخرى.

خرج الرجال من الديار وتأملوا وجوه بعضهم بعضًا. كان القلق جليًّا ومسيطرًا على المشهد. الرجال يسيرون وأياديهم متخشبة فوق مشاعلهم وعصيّهم، وقلوبهم تكاد تسقط من صدورهم، والنساء يسرن بخطًى بطيئة متثاقلة، وهن ملفوفات بالبُرد السوداء التي تحميهن من البرد والخوف، وأعينهن تبرق بالذعر. تتثاقل خطوات الجمع أكثر مع كل خطوة تقرِّبهم من الدوّار، يعبرون الجسر –الذي يقسم القرية نصفين– ويمرون بين ديار كبراء البلد التي تحوطها الحقول المظلمة حتى يصلوا إلى شارع الدوّار الضيق المزين بشجر الياسمين من الجانبين.

لطالما حلمتْ ليلى بمجيء هذه اللحظة، لكنها لم تتخيل أبدًا أن يأتي الحلم في صورة الكابوس. تركتْ مكحلتها ونزلت الدرج مسرعة، وهناك

رأت ابنها هشام يقف في منتصف القاعة، ممسكًا ببندقية، وأسفل أقدامه ترقد جثة والده الغارقة في الدم والعار. تعالى طرق الخفر على الباب لكن ليلى لم تك تسمع شيئًا، كانت لا تزال تنظر باندهاش إلى المشهد، بعين مكحلة إلى الفتى وعين عارية إلى الحقيقة.

الدوّار محاصر من الجهات الأربع. بالخارج يحتمي الرجال من الظلام بمشاعلهم المتوهجة، والنساء لا تزال مختبئات في برودهن. الليل أسود قاتم، محايد أم مدع؟ والأشجار تراقب الحشد من أعين البوم. الجميع يتساءلون عما حدث ويحدث بالداخل، ما سر صرخة ليلى؟ ما سر الطلق الناري؟ لكن الخفر كانوا لا يزالون يطرقون الأبواب والإجابات كانت موصدة.

خمسة عشر عامًا هي عُمر البداية، وهي عُمر هشام في الحياة. لم تضمرْ ليلى للقرية شرًّا عندما ارتدت بردتها وسارت بين شجر الياسمين حتى طرف القرية، هناك، في الأرض الخالية من أية حياة، وطرقتْ دار الشيوخ ذوي القروح والدمام وارتجتهم قائلة: "أريد ولدًا من رحمي"، فاقتربوا منها بأنفاسهم الكريهة، وتأملوا وجهها، وعرفوها، وعرفوا علتها من عينها اليسرى، وقرروا محاربة الله بالسحر. أدخلوها، وأشعلوا بخورهم، وجلسوا أمام كتبهم القديمة. تصاعد البخور، وامتزج بضوء الشموع، وبدأوا بالهمس، ثم ارتفعت أصواتهم فجأة وتحولت إلى زعيق مزعج ومخيف.

طلاسم، ينطقون بالطلاسم، بمزيج عجيب من القرآن والتوراة. نطق الشيخ الأول بالتعويذة فصرخ هاروت، نطق الشيخ الثاني بالتعويذة فصرخ

ماروت. مسكينان هما الملكان المصلوبان والمعلقان في السماء من ريشهما؛ بعدما فضحا أسرار الخالق. ضحكتْ ليلى بغنج عندما أحست بهواء خدر يتسلل بين قدميها، وشعرت بنشوة فردوسية خَالصة، فأخبرها الشيوخ أن الملائكة، في هذه اللحظة بالذات، ينفخون بداخلها بسر الخلق.

لم تقمْ ليلى بهذه الخطوة سوى بعد يأس. كان العمدة أيضًا قد يئس وتزوَّج من أخرى ثيِّب، لديها سبعة أبناء، جميعهم صبيان. لكنها لم تنجبْ؛ فطلقها وكاد يتزوج من ثالثة لكن البشارة جاءت بلسان الداية. قالت: "الست ليلى حامل يا عمدة"، وبلسان الشيوخ: "داخل رحم الست ليلى ولد، نبي يا عمدة، نبي". وعندما حاول العمدة تسمية الوليد رفض الشيوخ؛ قالوا إن الوليد يحمل قدره وقدر القرية، والاسم القديم. الولد يدعى هشام. ليس لك من الأمر شيء يا عمدة، هكذا قالوا، هذا هو المكتوب في اللوح المحفوظ.

فتح هشام باب الدوّار وخرج إلى الحشد هادئًا. كان يرتدي جلبابًا أبيض تعلوه عباءة سوداء. العباءة في الأصل ملك لوالده، لطالما أحبها هشام منذ الصغر وانتظر الليلة التي سيرتديها فيها، لكن الليلة لم تأت فقرر استعجالها. ها هو يقف أخيرًا أمام الحشد مرتديًا العباءة السوداء ومراقبًا الأسئلة الخرساء في أعينهم وقطرات العرق الصغيرة التي تتساقط من جباههم، قبل أن يتكلم وينقل إليهم الخبر ببساطة شديدة: "البقية في حياتكم. العمدة مات". شهقت النساء من هول الخبر، وتعالت ولولتهن، بينما تجلى الشك في أعين الرجال، لكن لم يجرؤ أحد على التساؤل:

"كيف مات يا عمدة؟"، ما عدا ذلك الرجل النحيل، الحافي، ذا الجلباب الرمادي القصير، الذي تقدم بجرأة وقال: "كيف مات يا عمدة؟ خبّرنا". الرجل يدعى عبد النعيم بن ليلى، يعيش وحيدًا في دار صغيرة عند الترعة، مات أبوه قُبيْل ميلاده بأشهر، وماتت أمه منذ سنوات قليلة. ابتعد الناس بسرعة عن عبد النعيم؛ كأن بالرجل جربًا، بينما اقترب هشام بخطوات واثقة، ثم جاءت الإجابة بعدها موجعة على الخد، صفعة على الروح، خزي وعري وانكسار أمام القرية بأكملها.

ظل عبد النعيم واقفًا لوهلة متسمِّرًا، يحاول الفهم، قبل أن يتستر بالزحام. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها هشام لعبد النعيم. حالت ليلى كثيرًا بين الاثنين، لكن القرية كانت تعرف دومًا أن هذا لن يدوم للأبد. كيف لرأس ابن الحَلبي أن تتساوى برأس ابن العمدة؟ مات العمدة هشام، كيف مات؟ ليس على القرية أن تعرف كيف، على الأقل حتى هذه الساعة. يكفيها فقط أن تتذكّر "للعمدة ولد"، والعبودية هي غاية خلق الله للخلق.

مع الجموع، سار عبد النعيم مطأطئ الرأس، في طريق العودة إلى الدار. كان لا يزال مصعوقًا؛ لم يتخيل قط أن يقتل هشام والده، مثلما لم يتخيل أن ينال تلك الصفعة أبدًا. تعالت همهمات الناس وهم يسيرون بين ديار كبراء البلد، الديار الواسعة القريبة من الدوّار. شرد عبد النعيم مرة أخرى وهم يعبرون الجسر للناحية الأخرى، حيث الديار الصغيرة الفقيرة المتلاصقة ببعضها البعض طعمًا في الدفء أو العزوة أو البقاء.

انفصل عبد النعيم عن المكان والزمان وعاد إلى أيام الدوّار الجميلة. تذكر ليلى عندما رآها للمرة الأولى، كان صغيرًا للغاية، يسير متشبثًا بطرف جلباب أمه الأسود، ويتعثر مع كل بضع خطوات أرضًا، فينهض ويجري للإمساك بها من جديد، ويجاهد لمسايرتها في خطاها الواسعة السريعة. ثم دخلا المندرة بعد ذلك وقابلا العمدة والجميلة ليلى. اختبأ الصغير وراء ظهر أمه؛ كي يراقب ليلى ويتأملها من دون أن يراه أحد، لكن ليلى كانت تراه وتراقبه مثلما يراقبها، وتضحك كلما بدا برأسه الصغير متسللا، فيبتسم هو أيضًا بدوره خجلا ويسارع للاختباء من جديد. أما أم نعيم فكانت منشغلة تمامًا بمحاولة إقناع العمدة بما تريد. طلب غريب! قالت إن الولد حفظ القرآن، وتعلم في الكتّاب، لكن الكتّاب – كما يعرف العمدة – لا يملك من العلم الكثير، والولد عاقل، ورحْمة أولياء الله الصالحين الولد عاقل، والشيخ عبد الغني يشهد بهذا، وهي تريد من العمدة أن يسامحها ويغفر لها ويساعدها في إدخال ابنها مدرسة البندر. ابتسمت ليلى حين سمعت هذا، بينما تعجب العمدة؛ طلب غريب من امرأة غريبة. هم من الحَلب أليس كذلك؟ منذ متى يريد الفقراء والحَلب تعليم أبنائهم؟ نصحها العمدة بتعليم ابنها حرفة، لماذا لا يرعى الغنم مثل والده؟ لكن أم نعيم جزعت حين سمعت هذا، وسجدت على الأرض، وكادت أن تقبِّل قدمي العمدة؛ لولا أن أمسكت بها يد ليلى بأدب ولطف، ونظرت للصغير بابتسامة ودود، وقالت: "العلم شيء عظيم، لكن هل تريد حقًّا أن تتعلم؟"، سكت

الصغير لحظة قصيرة قبل أن يقول بشجاعة: "نعم. أمي تقول إن المدارس للعظماء. هذا قدري"، ضحكت ليلى وقالت بسعادة: "أنت عظيم، إذن لك ما تريد".

توقف عبد النعيم أمام الزير الموضوع أسفل شجرة المسجد، بينما استمر الناس يهمهمون وهم يغوصون في الشارع الضيق. غاصت أقدام عبد النعيم أيضًا في الوحل بسبب الماء المنسكب من الزير. يتساءل الناس عن سر وفاة العمدة. يقولون ربما انتحر أو ربما مات ميتة عادية، يتساءلون عن سر العيار الناري، يقولون ربما أطلق العيار الناري من دون قصد وهو ينظف البندقية. يقولون ربما وربما، فمالِ القرية لا تريد النظر؟ المشهد هناك لمن أراد الوصول. نظر عبد النعيم داخلَ الزير فلم يجد سوى الماء الآسن. الزير مثقوب في المنتصف. من ثقَب زير المسجد؟ ولـمَ؟ ابتعد الناس عن عبد النعيم وتفرقت بهم الأزقة بينما ظل هو واقفًا، وحيدًا، وعطشًا في ساحة القرية قبل أن يقرر أخيرًا العودة إلى الدار.

عاد الناس إلى ديارهم بخطى سريعة ما عدا عبد النعيم، كان يجرُّ قدميه جرًّا. ثقيلة هي الأوجاع فوق ظهره، والذكريات؟ الذكريات هي لعنة عبد النعيم التي تطارده في كل مكان. لم ينس الدوّار يومًا واحدًا. وهل نسي آدم الفردوس؟ يبكي كثيرًا شوقًا إلى فاكهة الدوّار الغريبة، وورود الحديقة الحمراء، لكن آدم هبط إلى الأرض برفقة حواء، يا لحسن حظ آدم! أما عبد النعيم فقد ترك حواء في الدوّار القريب من سموات الله السبع وبقيَ هو وحيدًا في الأرض.

في الظلام، جلست ليلى وقد حلقت شعرها الأسود الطويل فبدت كالصبيان. خلعت زينتها: قرطي الأذن، وقرط الأنف، والخلخال، ومضنة الصدر الذهبية ذات شكل التفاحة المحرمة، وارتدت السواد ووسخت وجهها بالوحل. جلست في انتظار المُعزيَّات والمعددات. الدوّار بالكامل متشح بالأسود، الستائر المعلقة فوق النوافذ سوداء، والشمعدان مغطى بالقماش الأسود، وسجاجيد الكليم المقلوبة على وجهها سوداء. وليلى شاردة في الغرفة المغلقة المقابلة لها، يأخذها دخان البخور المتسلل من أسفل الباب إلى قديم الزمان: مبخرة ودخان.

منذ عام واحد، كان المنادي يسير في طرقات القرية وهو يحتضن الطبلة ويقرع فوقها بخفوت، يتعالى تدريجيًّا صوت القرع كلما اقترب من الديار. خرجَ الأطفال مبللين وعراة من الترعة وساروا خلف المنادي، والنساء فتحن نوافذهن وأبواب الديار ووقفن في انتظار الخبر المهم، والفتيات توقفن عن غسل الصواني وملْء القُلل وتهللت أساريرهن؛ فازددن جمالا وإشراقًا. الجميع تسمّروا في أماكنهم قبل أن يبدأ المنادي بالغناءِ:

يا من بابه عالي ورواجه هاوي
والعتبــة قرنفل وبخــوره جاوي

التف الأطفال حول المنادي وهم يصفقون ويرقصون ويقفزون من قدم إلى أخرى، بينما زغردت فتاة فوق سطح إحدى الديار، فالتفت إليها الناس، والمنادي بالذات الذي شعر بالسعادة وغمز إليها وهو يعدل

الطاقية؛ فضحكت الفتاة بغنج قبل أن يكمل الغناء:

رحـت للتاجـر ولجـاني خفـة
جابلي شواهي من أحسن لفة

وقف المنادي لحظة يتأمل الفتاة مرة أخرى قبل أن تجري مسرعة إلى الداخل. عدل المنادي الطاقية مرة أخرى وأكمل السير في شوارع القرية وأزقتها، وهو لا يزال يغني:

حاسبتك بالله وسيدي الإمام
الْبسـ يـا مطَّاهـر وانـزل الزفة

زغردت النساء جميعًا، الواقفات في النوافذ وفوق الأسطح، والفتيات الجميلات أمام الترعة، والعجائز المسنات الجالسات أمام عتبة الديار، وخرجت كل امرأة إلى الشارع وشدت ولدها إلى الداخل، حاول الأطفال مقاومتهن للحاق بالمنادي لكنهم فشلوا، واستسلموا وعادوا للديار؛ كي يرتدوا جلبابا نظيفة وطاقية أنيقة ومركوبًا؛ فالليلة سيتم طهور جميع أطفال القرية الفقراء على نفقة العمدة؛ الليلة إذن ليلة عرس.

حضرت القرية بأكملها في المساء إلى الدوّار. وقف الناس في الحديقة الجميلة ذات الورود الحمراء، وهم يتفرجون على هشام الذي يرقص بخيل سوداء قوية على أنغام الطبل والمزمار. تمر الخادمات أمام أعينهم بأشهى صواني الحلويات: مصبوبة، ونيدة، وذلك الطعام الغريب المسمى بالأرز واللبن. يأكل الناس بنهم وهم لا يزالون يتفرجون على الرقصة،

الخيل تختال في المشي برشاقة متناغمة مع اللحن خطوة بنغمة. وهشام يبدو فارسًا قويًّا حقًّا فوق الخيل؛ فلماذا تأخر طهوره كل هذا الوقت؟ الفتى بلغ الأربعة عشر عامًا، واكتملت ملامح الرجولة في جسده الأسمر الطويل الفارع. لا تعرف القرية أن ليلى هي من وراء تأجيل هذا العرس يومًا بعد يوم؛ من شدة خوفها على ولدها، لكن العمدة صمم أخيرًا على طهور الفتى؛ كي يصير رجلا في هذا الشهر المبارك.

حضر الشيخ أخيرًا، شيخ مجهول. توقفت الموسيقى وتقطعت الأنفاس في احترام وتبجيل. كان الشيخ يمتطي حماره النحيل بالمشقلب، ويرتدي عباءة خضراء واسعة وعمامة كبيرة. بدت القروح والدمامل كثيرة وقبيحة وتكاد تطمس ملامحَ الشيخ طمسًا لكن الناس لم يبالوا بها، و لم يخمنوا من يكون وراءها. قال الشيخ بصوت جهْوريّ: "يا حي يا قيوم، وحدوا الله يا عبيد الله"، فردد الناس وراءه: "لا إله إلا الله"، ثم تراجعوا للوراء على شكل دائرة مركزها الشيخ والفتى. وضع الشيخ يده اليمنى فوق هشام. في اليد اليمنى سبحة طويلة تكاد تلمس الأرض، وباليد اليسرى مبخرة الدوّار الذهبية التي كان يحركها يمينًا ويسارا فوق رأس هشام. تصاعد الدخان في الهواء على شكل دوائر تحتوي حروف لغة الجان السبعة عشر، ثم عرج الدخان للأعلى في الملكوت. حرك الشيخ المبخرة يمينًا ويسارًا بعصبية؛ فازداد الدخان، وظل يزداد بينما كان الشيخ يردد "اللهُم لك الحَمْدُ بتوفيقك قد أحْضرْتني الحياة، وجعلتني منْك في ولاية العصْمة؛ فلم أَبْرَحَ في سُبُوغ نعْمائك وتتابُع آلائك، محروسا بك في الرد والامتناع ومحفوظا بك في المنعة والدفاع عني.. اللهم بك أَصُولُ على

الأعداءِ والقُرناءِ، بك أَصُولُ على الأعداءِ والقُرناءِ، اللهم آمين".

ما إن انتهى الشيخ من الدعاء حتى سقط ميتًا فجأة. اجتمع الناس حول جثمان الشيخ؛ طلبًا للبركة بدورهم، وظلوا يتشاجرون على عمامة أو خرقة أو شعرة بيضاء من لحيته الطويلة، لكن الخفر أزاحوهم بعيدًا وصاح العمدة فيهم: "ما لك يا بلد المخابيل؟ ابتعدْ يا ولد ابتعدْ، الشيخ لم يمتْ بل رفع إلى السماءِ مثل عيسى، أو تاه في البلدان مثل الخضر، بلد مخابيل صحيح". حمل الخفر جثمان الشيخ فوق أكتافهم وألقوا به في الدوّار. خشي العمدة أن يفسد الموتُ هذه الليلة لذا كتم الخبر. نعق حمار الشيخ بالخارج اعتراضًا على سياسة العمدة، لكن الناس لم يسمعوه و لم يبالُوا، عادت الموسيقى وعاد الناس مرة أخرى للرقص والتصفيق على أنغامها فرحين.

لم تمرّ دقائق حتى جاء الطبيب أيضًا فزغردت النساء، وتشاجرت الخادمات على القطعة المقطوعة المعلقة بالمشرط، ثم اتفقن على التعاون معًا. رشت إحداهن الملح فوق القطعة ولفتها أخرى في منديل وردي، وربطتها الثالثة على شكل عقد، وعلقتها الأخيرة في رقبة هشام بدلال وغنج. أمرتْ ليلى هشام بالعودة إلى الفراش للنوم والراحة لكن هشام لم يُطعْ. أراد الفرجة على أطفال القرية وهم يُطهرون بأيدي الحلاقين، ويصرخون ويبكون ويحاولون الهرب مرارًا. يمتزج بكاؤهم بزغاريد أمهاتهم وضحكات الحسناوات وموسيقى المزمار والطبل، يمتزج الموت والسعادة في نغم موسيقيٍّ فريد.

انتفضتْ ليلى من شرودها لكنها وجدت الغرفة لا تزال مغلقة. منذ قليل دخلها هشام بصحبة المُغسل واللوح الخشبي. على ذلك اللوح الخشبي يرقد الميت ساكنًا جاحظًا، بعدما أخذ الله الأمانة والسر. بدا شاردًا كأنما يفكر في شيء ما، هل يفكر الموتى؟ ربما يفتقدون أشياءهم المحببة، ربما سيفتقد النافذة المطلة على الحقول الشاسعة، والزريبة الممتلئة بالمواشي والطيور، والحصان الأشقر، والطبنْجة التي لم يفارقْها أبدًا، والخزانة المغلقة المحشوة بالمال، كل هذه الأشياء سيتركها دون وداع أخير، فقد خانه الأجل وجاء قبيل ميعاده.

قام المُغسل بتكحيل العينين وغسل الجثمان وتبخيره بمبخرة الدوّار الذهبية، وهو يرتل بعض آيات القرآن من سورة المُلْك. وبعدما انتهى فتح هشام باب الغرفة؛ فنهضت ليلى مُفْزعةً بغير سبب، لكن هشام عاد مرة أخرى وقام بإعادة تسريح شعر والده، هكذا يبدو وسيمًا أكثر. ابتسم المغسل موافقًا ونزلا معا إلى الحديقة. وهناك قام العمدة بإشعال النيران في أدوات الغُسل التي جاؤوا بها من خارج الدوّار؛ فالموت تجربة جديدة ومدهشة، ولابد أن يخوضها الموتى بمتعة التجارب الأولى. وبمثل هذه الأدوات، أدوات الغُسل، يقوم الشيوخ والسحرة بالمعجزات؛ لذا وجب الخلاص منها. والميت عمدة، والجميع يطمعون في إرث العمدة: من كرسي أو زوجة أو مال.

تحرك النعش أخيرًا من أمام الدوّار. ولولت النساء والمعددات وهن يقرعن فوق الدفوف، وقامت بعض السيدات بشق ملابسهن في شجاعة كأنهن يتحدين بهذا ملائكة الموت. العري أمام الموت، فمن المنتصر؟

تستحي الملائكة من النهود والأفخاذ العارية فتنسحب منهزمة بعيدًا ويتطهر المكان من رجس الموت. قامت بعض النساء الأخريات بلطم وجوههن ولطخها بالطين والوحل. وظلت المعدِّدات يودعن النعش المبتعد وهن يقرعن فوق الدفوف ويغنين بشجن:

داركــم وسيعــة وبابهــا كويس
يا ميت ندامة صبحت بلا ريس

داركــم وسيعــة وبابهــا كويس
يا ميت ندامة صبحت بلا ريس

يا دارهم لا نطر عليك شاشي
يا اللي ضلامك يخوف الماشي

يا دارهم لا نطر عليكي حرام
يا اللي ضلامك يخوف الجيران

ظلتْ ليلى واقفة للحظات أمام الدوّار، تُودع النعش بشرود، حتى غاب تماما عن بصرها؛ فظلت واقفة في مكانها تبكي دون أن تعرف، أهي دموع حزن أم دموع فرح أم دموع العار؟ ستظل واقفة هكذا في مكانها تتساءل دون أن تجد الإجابة؛ حتى يُدخلوها إلى الدوّار ويغلقوا عليها الأبواب للأبدِ.

سار النعش ملفوفًا بشال من الكشمير ومحمولًا بأيدي الرجال من كل جهة. كان الأشقر –فرس العمدة– يسير أمام النعش، وقد قصُّوا ذنبه ووضعوا شعره فوق السرج. وفي المقدمة كان العمدة هشام يسير وبجواره شيخ الخفر حارث، ومن حولهم كثير من أصدقاءِ المرحوم، وبكوات البندر، وكبراء البلد.

توقف النعش أمام المسجد للصلاة على الميت، هي الصلاة الأخيرة التي سيشهدها العمدة قبل الرحيل، فهل يتقبلها الله؟ امتلأت الساحة بالرجال والشيوخ والأطفال. صلى الجميع ودعوُا الله أن يخفف عنهم عذاب الأيام المقبلة. تحرك الموكب مرة أخرى مكللا بالأعلام في طريقهم إلى الجبل، حيث الجبانة الممتلئة بالقبور، من أسفل نقطة في الظلام تعرج الأرواح للنورِ. انشغلت القرية عن الدعاء للميت والتهليل بالتفكَير في هذا الزائر الغريب الذي جاء بعد الصلاة، من يكون؟ رجل عجوز محني الظهر، يستند على عكاز أسود أنيق، ويرتدي بذلة أفندية لكنها طويلة من الجانبين، وقبعة سوداء طويلة ومضحكة كأنها طرطور. بحث الأطفال عن شيخهم وصديقهم نعيم ووجدوه كالمعتادِ بعيدًا عن الزحام. سأل أصغرهم: "رأيت الأفندي العبيط يا نعيم؟"، كاد عبد النعيم أن يجيب قائلاً: "هذا ليس أفنديًّا يا حسين وإنما.."، لكن حسين والأطفال جروْا وابتعدوا مسرعين إلى قراء البردة، وانشغلوا بالإنصات إليهم وهم ينشدون بخشوع:

مولاي صلِّ وسلـــم دائمــا أبـــدا
علـــى حبيبك خيــر الخلق كلهــم
ســـيد الـكـونـين والـثـقـلـيــن
والفريقين من عرب ومن عجـــم
نبينا الآمر الناهي فلا أحد أبر
في قـــول لا مـنــه ولا نـعـم
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته
لكل هــولٍ مـن الأهــوال مقتحمِ

استمرّ الموكب الجنائزي في تسلق الطريق، الجبانة تسكن فوق الجبل والطريق وعر، الصخور حادة وعليها آثار دم قديم. توقف النعش أكثر من مرة عند أضرحة الأولياء؛ فهلل الناس كثيرا بهذه البشارة. السلام عليك يا سيدي محروس والسلام عليك يا سيدي رفاعي؛ السلام عليكم، السلام.. السلام. قرر هشام الطواف بالنعش حول أضرحة الأولياء جميعًا فسعد الناس وهللوا وكبروا وسبّحوا الله كثيرًا. توقف النعش عند كل ضريح فاستمر المقام بهم هنا حتى غربت الشمس. كان الموتى والأولياء يلقون السلام بسعادة على الوافد الجديد.

غربت الشمس، واندفن القمرُ أسفل غيوم الظلام. أغلق الناس أبواب ديارهم ونوافذهم لكن الظلمات وجدت طريقها إليهم من الفراغات. كتم الليل أنفاس القناديل والمشاعل وقلوب الناس، ما عدا قلب عبد النعيم؛ ظل متعلقًا بالأحلام. أما ليلى فقد جلست في غرفتها شاردة

بانتظار ابنها حتى عاد، خلع العباءة التي يرتديها وعلقتها في الدولاب. التقتْ أعينهما، ورأى هشام الخوف فيها؛ سألها بقلق عن السبب، ارتعشت شفتاها وهي تجيبُ: "أبوك كان يحبك كثيرًا"، ضحك هشام وقال: "وأنا أيضًا. لولاي ما مات أبي شهيدًا وما دخل الفردوس"، لكن ليلى لم تضحك فنظر إليها عابسًا وشتمها وعنفها على حلْق شعرها وتلطيخ وجهها بالوحل، وأمرها بالذهابِ والاستحمام والنوم فوق وسادة مريحة. فالليلة ليست ليلة مآتم. الحزنَ لن يدخلَ هذا الدوّار أبدًا، سيظل طليقًا حرًا في شوارعِ القرية.

2
التجربة

الحب ما دام مكتومًا على خطر.. وغاية الأمن أن تدنو من الحذر

تسللتْ أشعة الشمس الذهبية من سعف النخيل، وتعالتْ ضجة الأطفال وهم يلعبون في الترعة. نعيم هناك نائم أسفل النخيل غائبًا عن ضجة الأطفال ولعبهم. يصعد أحدهم فوق الجسر ويقفز عاليًا فيسقط في المياه؛ يعلو رشاش الترعة في وجوه أصدقائه فيضحكون كثيرًا. الترعة هي المتعة الوحيدة المتبقية للأطفال. لا يجرؤ أحد من الكبار على نزولها، لأنهم لا يرون فيها سوى وجوه الذين غرقوا، ولأنهم يخشوْن من ندّاهة القرية التي تسكنها. النداهة تُدعى عيشة، عمرها يزيد على نصف عمر القرية لكنها لا تزال شابة جميلة. جُنّتْ عيشة ذات يوم عندما غرق عشيقها

في الترعة، وبدأت تردد الأشياء الغريبة التي تراها في المنام: سفر، غياب، شهوة، شبق، وخلود. ثم استيقظت ذات يوم صامتة و لم تتكلمْ مع أحد. كانت قد عرفت أخيرًا من تكون، و لم تعد بحاجة إلى عون العاجزين. جرحتْ يدها فاطمأن فؤادها حين رأت الماء يسيل بدل الدم. هي ابنة الترعة الطاهرة، ابنة المياه، ومنها خُلقنا وإليها نعود. لا يخاف الأطفال من عيشة لأنهم أطفال، الرجال فقط من يخشونها، ومع ذلك يحلمون بمضاجعتها. يريدون نيل هذا الشرف، شرف القوة، متعة مضاجعة طيف امرأة لم تعد هنا ولا يراها سواك. وهي لا تريد من الرجال شيئًا سوى مائهم السحري ولا تبالي بفنائهم.

ينعزل الأطفال هنا في الترعة بعيدًا عن هموم الحياة، ويغرقون همومهم في الترعة. أطفال هم، ربما، لكنهم يحملون من الهموم ما لم يحملها أجدادهم. الأجداد هرمون، ظهورهم محنية ووجوههم متشققة، لا يفعلون شيئًا سوى انتظار جلسات السمر حتى يسكروا بالموسيقى ويتمتعوا بما تبقى من عمرهم بينما تراقبهم أعين الموت الواسعة. يعجزون عن الاختباء في الليل عن الموت؛ فالموت يرى أفضل في الظلام. لا يحبّ عبد النعيم جلسات السمر تلك ولا يحضرها. كسول، يحب النوم أكثر. ينتظر دومًا حضور ملائكة النوم البيضاء حتى يسافر معها، فوق أجنحتها، فوق السحب والسموات. هناك يقابل الأنبياء ويرى معجزاتهم، يرى موسى وعيسى ومحمدًا، عليهم السلام، ويرى جدَّهم إبراهيم، وإسماعيل ويعقوب وسليمان. لكنه يرى الشياطين أيضًا. يرى إبليس وأبيض ودهار وحارث وهشام، تختفي الشياطين كلها حين يرى

الجميلة ليلى. تراوده ليلى كثيرًا عن نفسها في الأحلام. يراها نائمة فوق سريرها النحاسي ذي الناموسية، والمفروش بالملاءات الحريرية البيضاء. تنام عارية فوق الفراش وتتدلى سبحة طويلة من جيدها إلى نهديها الجميلين. شعرها أسود مبلل كأنها خرجت للتو من حمامها، تمسك بكأس من الخمر بين يديها. يراقبها عبد النعيم من وراءِ الباب وهي تبلل شفتيها الطريتين بماءِ الكاس، فيشعر بالعطش؛ يريد تقبيل هاتين الشفتين حتى يرتوي، يريد تذوق خمر النهدين فلا يعطش بعدها أبدًا. يفتح باب الغرفة فتراه ليلى ولا تتمنَّع، بل تباعد بين قدميها وهي تقول بغنج: "تعال يا نعيم بجواري. تعال". يقترب عبد النعيم من جسدها المدهش، عطشان هو. يريد الارتواء من كأسها المقدسة، هو المسيح، لكن من سيجمع دماءك في الكأس؟ ليلى... ليلى. يلمس جسدها الأسمر فيرتعش ويشعر بملمس حقول القرية الخضراء الناعمة. يلعق قطرات الندى النائدة فوق ورودها: نهديها وكتفيها وجيدها. تضحك ليلى بنشوة فيتوقف عبد النعيم لحظة ويتأمل عينيها السوداوين الضاحكتين، ويرى فيها أبراج الحمام والطاحونة والساقية واليمام والنيل ومراكب الصيد. آه يا ليلى. ترتعش شفتاه ويسمع صوت الأذان فيقبِّلها، هي المحراب، والصلاة في ليلى خير صلاة.

يستيقظ عبد النعيم فجأة، ويتأمل المكان بعينين ناعستين. ليلى ليست هنا ولا فراشها، تذوب حلاوة الحلم في لفحة الواقع. الشمس هناك تغرق في الترعة والأرض تدور مع الساقية في الضفة الأخرى. يعلو صوت ضحكات الأطفال فيعود تدريجيًّا للفهم. يتمنى لو غاب للأبد في الأحلام، لماذا عاد؟ وصية الشيخ عبد الغني تحول بينك وبين الفناءِ؛

قال لك: "ضع عينيك على الأطفال ولا تغفل عنهم أبدًا". قال ذلك ثم نظر إلى السقف وابتسم. لماذا ابتسم؟ ماذا رأى؟ لماذا يرحل الآن بالذات؟ نظر الجميع إلى السقف وبكوا، لم يروا الملائكة لكنهم شعروا بهبة النسيم الآتية من النافذة فعلموا. ورحلت روح الشيخ فعاد الجو حارًّا مثلما كان. مات الشيخ عبد الغني حزينًا وحيدًا مقهورًا، تعددت الأسباب للموت، لكنّ شرّ الميتات الهزيمة.

لم يكن الشيخ عبد الغني بالقرية عندما قُتل العمدة. كان في مصر – أم الدنيا– للعلاج. أرسل عبد النعيم خطابات كثيرة للشيخ عن طريق الحمام، يصف فيها حال البلد بعد موت بو هشام، لكن اللغة كانت دومًا تعجز عن الوصف؛ لذا عندما عاد الشيخ إلى القرية اندهش مما وصلت إليها الحال، كأنها قرية أخرى وناس غير الناس. الجميع مستسلمون لطغيان العمدة الجديد، الرجال مستسلمون وتفوح منهم رائحة غريبة مقززة، والعائلات الكبيرة باعت البلد ووضعت يدها في يد هشام، حتى بيت الشيخ.. بيت القرآن.. زهد من الزهد. لكن الشيخ عبد الغني لم يرضخْ، وآخرين أيضًا تمردوا، وثاروا، لكن عائلاتهم طردتهم بعيدًا وتبرأت منهم. وبقيت تلك الرائحة الغريبة في القرية وامتزجت بهوائها وترابها، وبالصور المنقوشة فوق جدران الديار: الأعين الزرقاء وأكف الدم الحمراء والسيوف والجمال والخيول والأفيال والكعبة المقدسة والبوم والعقارب والغربان والثعابين. امتزجت تلك الرائحة الغريبة المقززة بكل شيء، حتى ببخور المسجد، وأحبتها القرية. مثلما أحبّتْ أصحابها السكارى وهم يترنحون في طريق عودتهم إلى الديار، وأحبت ضحكاتهم الصاخبة وطرائفهم

الغبية، وتجارب الفتيات للخمر خلسة، وخيالات العشق المحرم التي باتت تراود الجميع. أما نعيم والأطفال فلم يحبوا تلك الرائحة، هرب منها عبد النعيم بليلى والأحلام، بينما حاربها الأطفال بالنبل والحصى.

كانت الرائحة الغريبة المقززة تأتي من الخمارة الجديدة المغروسة في قلب القرية كالخنجر. الخمارة ملاصقة لحانوت العطارة وقريبة من المسجد. كان الشيخ عبد الغني يسير بجوارها مندهشًا من الناس، كيف وصل الأمر لهذا الحد، بل كيف بدأ أصلا؟ وكيف عاش هذا العمر المديد حتى يرى هذا الأمر؟ فكيف لو عاش عمرًا آخر ورأى حال القرية اليوم؟! يا للعار! في البداية وعد العمدة الناس أن الخمارة لن يدخلها سوى الإنجليز، لن يدخلها أحد من أهل القرية أبدًا. كيف صدقوه؟ وهل كانوا يملكون خيارًا آخر؟، نسوْا جميع خطب الجمعة يا شيخ عبد الغني، ونسوا اسم الله عز وجل والصلاة على النبي المختار، لكنهم لم ينسوا الاستغفار. كثرت ذنوبهم، لكنك قادر على إعادتهم لطريق الحق، الله معك. حاول الشيخ عبد الغني في خطبة جمعة فماذا فعلوا؟ لقد أنزلوه من المنبر وعنفوه قائلين: "الله غفور رحيم لكن العمدة.. اتق الله فينا يا شيخ"، وقالوا آخرون: "آل الشيخ هم أول من نسي كلام الله". حاول الشيخ اللجوء لأقربائه حتى يعود الناس، لكن لم ينصره أحد؛ ملأت رائحة الخمر أفواه حفظة القرآن.

وكان مالك الخمارة هو ذلك الشخص الغريب، الأفندي العبيط. وللغرباء رائحة تعزلهم عن أهل القرية الأصليين. لكن رائحة الغريب

ذابت في رائحة الخمر، فلم تبال القرية بها بل لم تشمها من الأصل، لأنها صارت تفوح من جلدها. صار ذلك العجوز –بعد عامين– كأي من أبناء القرية الأوفياء. ونسيت القرية كل الأشياء التي كرهتها في الغريب مثل: العينين الزرقاوين، والبشرة البيضاء المحمرة، والأنف الطويل الحاد، والشارب المجدول كشوارب بكوات البندر. صار العجوز محبوبًا للغاية خاصة بعدما خلع ملابس الأفندية المضحكة التي جاء بها وارتدى الجلباب والعمَّة. وأصبح وأمسى يحاول تقليد أهل القرية في لهجتهم يقول: "ورهمة سيدي مهروس، ورهمة سيدي بو هشام.. أنا أهب البلد والناس والهمير". ويضحك الناس فيغضب ويشتمهم: "أنا أهب البلد يا أولاد الدوجز"، فيضحكون أكثر، ويعرفون أن الخواجة لا يقصد أن يشتمهم، هو فقط يحب الكلاب والدوجز بشتى أسمائها وأنواعها. يتفهمون هذا لأنهم سكارى حقًّا. صار الخواجة واحدًا منهم، أو العكس؛ ولهذا كرموه، من دون قصد، وغيروا اسم شارع المسجد إلى شارع الخمارة، أو شارع الخواجة ألكسندر، أو شارع الإنجليز.

لم يصْدُقْ هشام في وعوده، فقطعها كأنه لم ينطقْ بها. كان الإنجليز يأتون بالطبع، وخاصة أيام السبت والأحد، لكن القرية بأكملها دخلت الخمارة: الشباب والرجال والشيوخ، وحكماء البلد وكبراؤها. القرية بأكملها أدمنت السكر حد الغياب. حتى الفتيات والنساء كن يوعزن أحد السكارى كي يشتري لهن ما يردن مقابل قبلة في الظلام أو أكثر. وحدهم الأطفال ظلوا أنقياء لا تفوح منهم سوى رائحة الفطرة. لم يفكروا مثل الكبار لأنهم وجدوا متعتهم في مغامراتهم السرية. كانت تلهمُهم قصص

المطاريد الشجعان الذين سكنوا الجبل بعدما طردهم العمدة وعائلاتهم؛ لأنهم عشقوا الحق و لم يبيعوا البلد. يعمل الأطفال بالحقول في النهار ويحضرون الكتّاب عند نعيم بالظهيرة، وحين تغفل عنهم القرية يتسللون إلى شوارعها، يختبئون في الظلام ويحاربون الخفر والخواجة والسكارى بالنِّبل والخرافات. يقلدون أصوات الكثير من الحيوانات جيدًا: الحمير والذئاب والكلاب والبقر، ويقلدون أصوات الخرافات أيضًا: النداهة والسلعوة والغول والعفاريت. يستغلون كل مهاراتهم في صنع المكائد، يجْرون في حقول القصب والقمح والشعير والبرسيم، ويتسلقون أسطح الديار ويتسللون في أزقتها المظلمة، ويلسعون قفيان الخفر والسكارى بالنبل من دون أن يراهم أحد قط.

منذ أسبوع واحد فقط، قام الأطفال بخدعة طريفة، وقفوا عند الشجرة الكبيرة المجاورة للجسر وظلوا بانتظار الخفير عثمان – السمين الجبان – بفارغ الصبر. كانوا قد أشاعوا في القرية أخبارًا عن ظهور السلعوة بالبلدة المجاورة ثم نشروا الشائعات بظهورها في قريتهم. وعندما اقترب عثمان من الجسر قام أحدهم بتقليد صوت السلعوة، ورأى عثمان ذلك الحيوان الغريب المريب الواقف في الظل، ذا أذنين رفيعتين وجسد أشعث؛ فظن أنها السلعوة؛ لم ينتظر المسكين للتأكد بل جرى مذعورًا بجنون وهو ينظر للوراءِ تارة وللأمام تارة، حتى سقط في الترعة. وهنا ازداد ذعره أكثر، ليس من السلعوة فقط ولكن من النداهة عيشة. ضحك الأطفال وهم يراقبون الخفير المسكين ثم سمعوا خطوات أقدام قادمة فاختبأوا مسرعين في حقل، بينما بقي الكلب الجائع الأشعث النحيل وحده ينبح بوهن.

ظل الأطفال يترقبون ظهور الشخص القادم. من كان؟ لم يره أحد. أمر غريب، والأغرب هو أن أهل القرية لم يروا عثمان بعد اليوم.

يريد الأطفال هزيمة العمدة، والإنجليز، والمأمور، والبكوات، والعائلات الكبيرة، والخفر، وقبل كل شيء صمت الناس، فكيف ينجحون؟ ربما ينجح المطاريد ذات يوم، ربما غدًا. ربما يلحقون بهم في الجبل حين يكبرون، فيكملون الكفاح، ويقابلون كبير المطاريد حسن السعران، ويخبرونه بكل بطولاتهم الطفولية. المطاريد هم شمس القرية الباقية، هم الذين سألوا الأسئلة المحرمة ولم يخافوا الإجابات أو سوط الخفر. هم الذين قالوا: "كيف مات والدك يا عمدة؟"، وقالوا: "خبِّرنا بالحقيقة"، واتبعوها حتى الجبل الشامخ. أما القرية المسكينة وأهلها فهم كتلك المرأة العجوز الخرِفة، التي تجلس دومًا أمام المسجد، تحتضن رغيف العيش بفزع وهي تتلفت حولها خشية جشع الأغنياء وجوع الفقراء وسوط الخفر، وخطوات حصان العمدة وهو يركض في طرقات القرية، ونباح كلاب السلقان وهي تطارد فرائسها. وتخشى الشوارع الميتة بعد اختفاء الصبايا الجميلات منها، واختفاء ألعابهن كنط الحبل والحجلة، واختفاء الصبيان وصيحاتهم وهم يلعبون أبو رياح أو الطراشة. من يصدق أن هذه الشوارع الميتة قد امتلأت بالزغاريد منذ عام واحد؟ حين تزوج العمدة من تلك الفتاة التي تكبره بعامين، لكنها فاتنة. القرية بأكملها تقسم بجمالها. يسقط الرجال أسفل أقدامها حين تعبر أمامهم، ويموتون أحيانًا. قالت الشوارع إن الفتاة لم تُرد الزواج من العمدة، أحقًّا؟ من يجرؤ على الرفض؟ تزوجها قهرًا ربما. أقاويل قديمة لكن ذات الشوارع هي التي

تكذبها اليوم. الناس لا يريدون التحدث في شيء، نسوا تلك الفتاة وليلى والمطاريد والشيخ عبد الغني، وتذكروا فقط حاجتهم للخمر والنسيان.

نهض عبد النعيم متثاقلا فرآه أحد الأطفال ودعاه كي ينزل الترعة ويشاركهم اللهو، لكنه رفض بالطبع. لم يكنْ يخاف من عيشة ولكن من الذكريات. خاصم عبد النعيم الترعة منذ الطفولة بعد تلك الحادثة المشؤومة. يومها كان يسبح في الترعة مع الأطفال لساعات طويلة حتى عرج أذان العصر إلى السماء. خرج الجميع من الترعة بينما ظل هو فيها، كانت مدهشة ذلك اليوم. يرى فيها انعكاس السماء والسحب والشمس والنخيل. الأمواج تتراقص بسعادة، تعلو حينا وتهدأ حينًا، كأنها نغمة هاربة من تلك الآلة الموسيقية العجيبة التي رآها الشيخ بالقاهرة. ماذا كان اسمها؟ العود. ما شكل العود يا ترى؟ والقاهرة؟ آلاف المآذن شامخة في السماء كالنخيل. مآذن القاهرة والحسين، ومدرسة كبيرة للفقراء، بل جامعة. من أنشأها؟ مصطفى؟ مصطفى من؟ لم يتذكرْ. رأى كل تلك الأحلام تسبح في الترعة كالأسماك الملونة، ورأى أيضًا اليعاسيب تحلق في الهواءِ. لم يُردْ أن يخرج من الترعة لكنها قطعت تلك اللحظة الساحرة. تلك الشيطانة الصغيرة التي وقفت على الضفة أسفل النخيل تسرق ملابس الصغير: الجلباب والمركوب. طفلة صغيرة عمرها لا يتجاوز سبع سنوات لكنها تمتلك لسانًا طويلا، نهرها الصغير لكنها لم تستجب وأخرجت لسانها مستهزئة. هددها بالخروج إليها وضرْبها فضحكت ضحكة طفولية شريرة، وأخرجت لسانها وجرت مسرعة خائفة. لم يتركها، جرى وراءها وطاردها، لكنها كانت شيطانة صغيرة رشيقة حقًّا،

تعْبر بين الأقدام وتقفز فوق رؤوس الناس وعربات الكارو. لهث الصغير وراءها وتوقف لالتقاط الأنفاس. أين ذهبت؟ يبدو أنها اختفت تمامًا. ظل الصغير يحاول إيجادها في الزحام لكن الناس كانوا يقتربون ويتزايدون أمام بصر الصغير بشكل مريب، ابتعدوا، ابتعدوا، ما بكم؟ حاول تخمين سر تلك النظرة في أعينهم، نظر إليهم مستغربًا قليلا قبل أن يتذكر جسده العاري؛ فجرى هاربًا مبتعدًا كالمجنون، حتى قفز في الترعة، وهناك ظل في المياه حتى غربت الشمس و لم يخرجْ منها. ظل يرتعش من شدة الخزي والبرد، والخوف أيضًا. كان خائفًا جدا من كل خرافات القرية، العفاريت الذين غرقوا هنا من قبل، والنداهة عيشة، ووحش الترعة الأخضر الذي يخرج بعد منتصف الليل. و لم تمض لحظات حتى رأى ظل عيشة يقترب في الظلام؛ صرخ، لكن الترعة كمّمتْ فم الصغير بمائِها؛ ففقد الوعيَ، وغاص في الأسود البارد.

تذكر عبد النعيم كل هذه الأشياء وغيرها وهو يتأمل الترعة والأطفال. لا، لن ينزل إليها أبدًا. تعجب كيف يلعب الأطفال بهذه البراءة ولا يخشون شيئًا. كأنما لم يلعبْ مثلهم يومًا واحدًا في الحياة، كأنما لم ير فيها جميع الأحلام المدهشة. لكن ماذا كسب من تلك الأحلام؟ لا شيء سوى الابتدائية. تأمل الأطفال وهم يضحكون والشمس تنير وجوههم. أين الصغير حسين؟ لم يره فيهم. لم يكنْ يعلم أن الصغير قد ذهب في مغامرة أخرى مجنونة من مغامرات الصغار. لم يكن يعرفْ أي شيء عن تلك المغامرات أصلا. وعلى الرغم من صداقة الصغير حسين الخاصة جدًّا بنعيم، لكن تلك المغامرات كانت سر الأطفال المقدس.

ازدادت صداقة حسين بنعيم بعد وفاة الشيخ عبد الغني، قبلها كان يسير وراءه حسين كالظل ويتبع كل خطوة يخطوها: في المسجد، والوديان، وعند الترعة، وبالقرب من الدوّار. كان يستغل أية فرصة للجلوس بقرب نعيم، بينما كان نعيم يستغل كل فرصة للهرب. وبعد وفاة الشيخ ازدادت تلك العلاقة أكثر. ارتدى عبد النعيم عباءة الشيخ، وجلس أسفل عموده المعتاد فوق السجادة الخضراء يرتل بعض آيات القرآن. لم يأت أحد من التلاميذ سوى حسين، الذي غضب بشدة حين رآه جالسًا مكان الشيخ، وأنكر ذلك إنكارًا شديدًا كأنما ارتكب كبيرة. كان لا يزال يأمل في عودة الشيخ وبرائه من الموت. ثم سأل عبد النعيم عما يفعل هنا، ولماذا يرتدي عباءة الشيخ، فأجاب: "أنا شيخك منذ اليوم"، لكن الصغير لم يقتنعْ وظل واقفًا للحظات يتأمل عبد النعيم بعينين عسليتين حالمتين، رأى فيهما عبد النعيم ذات الأحلام القديمة، كأنها ترعة سحرية من العسل. لماذا كان يطارده في الوديان؟ أيكون الطفل حالمًا آخر غبيًّا؟ ما أقسى الحياة! كانا يتأملان بعضهما بعضًا، كأنما يتعارفان للمرة الأولى. لكن حسين قطع الصمت وقال: "لو أنك شيخي كما تقول، إذن هل تعرف حل اللغز؟" آه، ما أصعب السؤال!. الشيوخ وحدهم من يعرفون الإجابة؛ فكيف سترد يا عبد النعيم؟ هل تعرف حل لغز الأرنب وكلاب الصيد؟ الحكاية التي لم يملّ الشيخ عبد الغني من حكيها يوميًا في المسجد. الأرنب الذي كان يهرب من كلاب الصيد مرة بعد مرة حتى تعبت الكلاب من المطاردة واعترفت بعجزها وتساءلت: "كيف تهرب منا يا أرنب؟"، لكن الأرنب كان

يضحك ولا يجيبهم. يتساءل عبد النعيم بحيرة: "خبّرني والنبي يا شيخ، كيف يفعل هذا؟"، فيضحك الشيخ ولا يجيب. يتساءل الصغير بفضول "خبّرني.. خبّرني أنا يا شيخ، كيف يفعلها الأرنب؟". يصمت نعيم منكسرًا، بماذا ستجيب. ويصمت الصغير قليلا قبل أن يقول بأسى: "لو كنت شيخنا حقًّا لعرفت حل اللغز".

"الْحقنا يا نعيم. شيخ الخفر يقتل حسين. الْحقنا".

أطلق أحد الصبيان تلك الصرخة فانتزعت عبد النعيم من الذكريات وانتزعت الأطفال من الترعة؛ فارتدوْا ملابسهم وجروْا مسرعين مذعورين وراء نعيم ناحية الخمارة. ارتجفت قلوب الأطفال جميعًا لأنهم لم يتوقعوا هذا الحدث أبدًا، ولأنهم ورطوا نعيم معهم في مغامراتهم؛ وبالتالي سينفضح سرهم. أما عبد النعيم فقد كان يشعر أن وراء غياب حسين سرًّا. ماذا يريد شيخ الخفر من طفل صغير؟ ماذا يريد شيخ الخفر السكير القاتل؟ لو كان يعرف سر غياب الصغير ما سأل هذا السؤال. ماذا يريد طفل صغير من شيخ الخفر؟ هذا هو السؤال الصحيح. كانت مغامرة الصغير حسين مغامرة بسيطة وسهلة قام بها من قبل كثيرًا، وهي مراقبة شيخ الخفر ومعرفة الأسرار التي يفضحها السُّكر، مثل علاقة ألكسندر بالعمدة وفضائح المأمور الذي لم يروه قط، والأهم بعض الأخبار غير المفهومة عن المطاريد والكهوف والموتى، وأحيانا يُعْرف القليل عن ليلى. لم يكن شيخ الخفر يتحدث كثيرًا عنها بل كان يتجاهلها قدر المستطاع،

وحين يتذكرها يشتمها فجأة ويلعنها دون سبب، وهو يترنح في الطرقات ويتمنى لها الموت. يخشاها حارث مثلما لم يخش أحدًا من قبل، ويتمنى أن يدفنها هناك في الجبانة للأبد. ويصلي لله سبع مرات في اليوم، بدلا عن الصلوات الخمس، كي تموت ليلى ويُتقبل دعاؤه. لكن اليوم، لم يسكرْ حارث كثيرًا وربما لم يسكرْ أصلا، وإن كان يترنح كالمعتاد في الطرقات. كان ينتظر ظهور ذلك الصغير بشدة الذي بات يراه كثيرًا في الأيام السابقة، تجمعهما الصدف في كل مكان، بالجسر، والساحة، وأمام الخمارة، وفي الطريق إلى الدوّار. لم يكن حارث ليشك في طفل صغير لولا تلك النظرة الغريبة التي يراها في عين حسين، نظرة كراهية شديدة، لكنها لا تلبث أن تختفي حين تلتقي أعينهما وتحل مكانها نظرة طفولية فارغة بلهاء. واليوم قرر حارث معرفة سر الصغير، ومن وراءه؟ مثلما كان الصغير يريد معرفة سر حارث. تشابهت نيَّاتهم فاصطدمت أقدارهم. وهناك، بالقرب من الخمارة، يمسك حارث بحسين بيد واحدة ويصفعه باليد الأخرى بقسوة وغلظة. كان المارُّون يسيرون بجوارهما كالعميان، الصغير حسين يصرخ لكن لا أحد يسمع. يصرخ من دون صراخ، ويبكي من دون بكاء. لا فائدة، ما من مغيث.

جرى الأطفال في كل اتجاه بغير هدًى، بعضهم تسلق أسطح الديار من غير غاية محددة، وبعضهم اختبأ بين المارة في الزحام، كان الخوف قد شل تفكيرهم؛ فلم يعرفوا ماذا يفعلون. تركوا حل المشكلة على عاتق نعيم وحده، من دون أن يعرف شيئًا عن أسبابها. لم يكن عبد النعيم مدركًا لما يحدث بدوره؛ كان ضائعًا في ضوضاء الشارع المتآمر ضده.

تهرب الأفكار الصغيرة كأن هناك حفرة في الرأس: ضوضاء، أصوات متآمرة، ثرثرة الرجال، ضحكات الفتيات الغنجة، نميمة النساء والعجائز. تفور الدماء في عروق عبد النعيم فجأة عندما يسمع صرخة حسين المستغيثة، ويراه هناك يتلقى الصفعة تلو الأخرى. لا لا تبك، تجلد! تجلدْ أيها الصغير! تفور الدماء أكثر وأكثر كلما تلقى حسين صفعة؛ فيجري عبد النعيم كالثور الهائج الطائش وينطح جسد حارث الهزيل؛ فيطير في الهواء ويصطدم بجدار الدار، ويسقط أرضًا داميًا فاقد الوعي، كدمية قماشية قديمة لأراجوز مسن.

يا للمصيبة! استيقظْ! انظر ماذا فعلت؟ جسد شيخ الخفر مُلقى على الأرض وآثار دمائه الحمراء اللزجة فوق جدار الدار. تعالت دقات عبد النعيم بقوة وهو ينظر بعينين فاغرتين، كيف فعل ما فعل؟! يا الله! هل نسيَ صفعة هشام منذ عامين، آثارها على الروح لا تزال ملوثة. فأي ورطة تلك! لكن ماذا عن حسين؟ التفت عبد النعيم إلى حسين فوجده يضحك بسعادة رغم الدموع المنهمرة فوق الخد، فضحك هو أيضًا دون أن يشعر. لم يعرف كيف ضحك؟ نسي كل شيء حين نظر لعيني الصغير المشرقتين السعيدتين. ثم نظر للجمع الصامت وصرخ فيهم: "كان سيقتل الطفل الصغير"، لكن الناس لم تجب فكرر عليهم القول"هذا طفل. انظروا، كان سيقتل طفلًا صغيرًا". لكن الناس لم ترُدّ. ظل الصمت مطبقًا على المكان، أكل القط ألسنة الناس جميعًا.

سار نعيم ممسكًا بيد الصغير حسين بقوة وهما يخترقان الزحام. كان

الصغير لا يزال مبتسمًا رغم الدموع المنهمرة، وكان الناس يبتعدون ويفسحون لهما الطريق. سار الاثنان معا وهما يخترقان زحام الشارع، وأعناقهما تطول فوق الديار والسماء، وحولهما الأطفال يسيرون وهم يرقصون ويقفزون في سعادة.

ما إن عاد نعيم والأطفال شارع الخمارة حتى بدأت طقوس أخرى. خلع الرجال جلاليبهم ووقفوا عراة الصدور وهم يعوون بشكل عجيب. والفتيات رقصن حافيات، وقد كشفن بعض أجسادهن وتسترن ببعض ورق الشجر. أما العجائز فكن يجلسن أمام الديار يزغردن ويقرعن فوق الطبول؛ كل ذلك لأن الشيخة عالية جاءت وأمرتهن بهذا. والشيخة عالية هي تلك المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض المنكوش والجالسة أمام الإناء المغلي. في الإناءِ تضع خصلةً من شعر حارث الأبيض وبعض الأشياءِ الأخرى المجهولة، وترتل تعاويذها بصوت جميل. كانت القرية تبجلَ الشيخة عالية بشكل خاص؛ ربما بسبب قرابتها بـ"النداهة" عيشة التي تزورها كثيرًا في أحلامها، وتقص عليها بعض حكايات الأزمان الغابرة وتخبرها ببعض أسرار الخلود. تحب القرية الشيخة عالية وتقبل يدها المكرمشة ذات العروق الزرقاء البارزة ما إن تراها في الطرقات، ويثقون في قدرتها على هزيمة شيخ الخفر حارث، ذلك العجوز الهرم، الذي قام في ليلة ختان هشام وبماء غسل الشيخ الميت بسحر مهلك، لكنهم اليوم لا يخشون سحر حارث. يرقصون بشجاعة وهم يعوون كالذئاب، وترقص الفتيات، بسحر كالغواني، عاريات سوى من بعض ورق الشجر. لم يخش الجميع أن تخترق أرواحهم حرقًا. كيف يخشون بوجود الشيخة

عالية وعفاريتها الكثيرة؟ شجعان هم، المجد لهم. المجد للرجال الذئاب والفتيات الجميلات العاريات.

على ضفاف الترعة جلس عبد النعيم يتأمل ضوء القمر الفضي، وهو يتلألأ فوق المياه ويتراقص مع الموج ونغم الربابة، الآتي من الضفة الأخرى، حيث يجلس الناس حول المغنواتي في حلقة سمر متدفِّئين بالنيران والأغنيات. يحتفلون اليوم علانية في جلسات السمر التي لم تكن تحدث سوى في السر؛ بانكسار حارث وهروب الخفر من الطرقات. تشد الموسيقى أرواح السكارى والمتعبين إلى الغناء، عادة القرية المحببة التي توارثتها من جدّ إلى جدّ، لكن الخفر كانوا يضيقون من تلك العادة، يكرهون الغناء والربابة والسير والأبطال وصليل السيوف، يكرهون عنترة بن شداد وحمزة البهلوان والظاهر بيبرس والحلاج. يريدون سجْن القرية في البيوت لكنهم لم ينجحوا؛ فالناس يعشقون الغناء، ولطالما كانوا يغنون كل ليلة ويتحدون أوامر الخفر لكن بالخفاء. واليوم ما عاد الصبيان يقومون بمراقبة الطريق لهم من الخفر. اليوم يجلسون مع الكبار والرجال حول حلقة النار ويغنون بعلو صوتهم، وبماذا؟ بهزيمة شيخ الخفر وبقايا دمائه الحمراء اللزجة التي ستظل باقية على الجدار كتعويذة خالدة ضد الشر.

تعالتْ أصوات الجميع مع صوت المغنواتي، وامتزجت أحرفهم بنغم الربابة العريق. الملحمة تتجسد أمام أعينهم فيذوبون في جمال الماضي. يحتفلون بالغناء لبطل قريتهم المحبوب، البطل الذي استطاع كسر شوكة الأعداء فقام الأهل وراءه ونصروه وحرروا الأسرى والضعفاء والمغلوبين. بطلهم الخرافي هو أبو زيد الهلالي، فارسهم الملهم العظيم.

قاله الشريف
دا أنت
نفدوك يا بطل
بالعين دي
ياللي بيكم نارت أراضي
الطلب ده موجود عندي
لو الله يكون عليك راضي
عندي بنيَّة صبية
الريق يبري السماتي
تحاكي النجمة البدرية
تفوق القمر في السماتي

مسكين أنت يا عبد النعيم!. محتك القرية تمامًا من المشهد وبغمضة عين، فلم يروْا سوى يد الله تحرك الأشياء وحدها، و لم يروا أيضًا سوى بطولتهم. هكذا تفعل القرية دومًا معك، تمجد أبطالها الخرافيين وتنساك أنت. كيف تتذكر راعي الغنم الفقير؟ من تكون أنت أمام أبو زيد الهلالي؟

نهض عبد النعيم من أمام الترعة ودخل الدار بخطوات مثقلة بالهموم. الدار تتكون من غرفتين فقط: زريبة وقاعة. ينام عبد النعيم في القاعة فوق الفرن البلدي، وينام أحيانًا أخرى أمام الترعة بالخارج. بجوار الفرن يوجد كوبان وبراد شاي صدئ، وأسفل الجدران المشققة يوجد كيس سكر مثقوب يستند على قنديل قديم معطل. وتوجد كتب كثيرة في كل

ركن، أهداها الشيخ لعبد النعيم منذ زمن. رقد عبد النعيم فوق الفرن و لم يستطع النوم؛ ظل شاردًا يفكر، ماذا سيفعل العمدة يا ترى؟ ربما لن يفعل شيئًا، من أنت أصلا حتى يراك العمدة؟ أنت راعي غنم ورعاة الغنم رجس للمصريين؛ هكذا قال الرب في التوراة من قبل. تؤمن القرية أن هذه المهنة من شيم الحلب. ولله في خلق الناس درجات، أعلاهم الهوارة وثانيهم العرب، أما الحلب فهم لا شيء. حتى إن أهل القرية لا يعرفون لماذا خلقهم الله أصلا. مسكين هو عبد النعيم، لا يعرف إن كان من الحلب حقًّا – كما تزعم القرية – أم لا؟ ولا يعرف إن كان ذلك سبَّة أم شرفًا؟ لا يعرف سوى أنه وُلد في هذه القرية وأحبّها. كان والده يعمل راعيًا للغنم لكنهما لم يلتقيا بسبب ناموس الغيب والأقدار، مات قبيل ميلاده فورثت أم نعيم المهنة. تقول القرية إنها كانت ترقص بالموالد في شبابها، وأنها كانت تعرف الغيب وتقرأ الودع، لكن عبد النعيم لم يرها تقرأ الفنجان مرة واحدة أو تنصت للودع، هي امرأة غامضة قليلة الكلام، فهل هذا دليل تُهمتها؟ ربما كانت تعرف الغيب حقًّا لكنها تعشق الصمت أكثر. لم تخبره المرأة بأي شيء. من يكون؟ ما أصلهم؟ الحلب يعرفون حقيقتهم وتاريخهم ومستقبلهم، فكيف يكون من الحلب ولا يعرف؟ ربما كانت لك عائلة من قبل لكنها تاهت في الوديان وراء الغنم. هل يمكن أن يضيع الراعي حقًّا؟ يا لها من مهنة قديمة ملعونة في أرض لا تؤمن سوى بالأرض والخبز والطين. الأرض تقيِّد أقدام الناس بالوحل، الأرض لا تؤمن بالسفر وراء الأغنام في الوديان، هناك، حيث اكتشف الله الرحيم في السماء بالغنم والمتعبين.

لم يشفعْ لعبد النعيم دخولُ مدرسة البندر ونيْلُ الابتدائية؛ حتى يرتقي في عين القرية. المدارس كذبة غبية أصلا لا يصدقها سوى الحمقى من الفقراء والبائسين. الناس هنا لا يؤمنون بالكتب؛ والأقلام لا تشفع لأحد. وحدها الفؤوس تشفع عند الناس والرب. هم يعرفون جيدًا حقيقة المدارس. يدخلها أبناء البكوات ويتعلمون فيها الحساب والأرقام ويخرجون منها كي يسرقوا الفقراء بشكل أفضل مما فعل آباؤهم.

عاد السكارى أخيرًا إلى بيوتهم وهم يترنحون فوق الجسر على بقايا الموسيقى العالقة في أرواحهم. يرددون بعض كلمات السيرة ويرقصون حتى يغيبوا في الظلام، فيعود الليل موحشًا وصامتًا مثلما كان أبدًا، ويعود عبد النعيم وحيدًا مثلما خُلق. لم يستطع النوم حتى هذه اللحظة؛ لا يزال يفكر فيما حدث. دماء حارث فوق الجدار، ونظرة الصغير حسين الفرِحة، وانتقام العمدة. ترى كيف سيكون؟ ربما تنقذه ليلى، لكن هل فعلَت من قبل؟ يوسوس الخوف بالعديد من الميتات المفزعة، وهو يريد ميتة جميلة كحمامة حرة في السماء، ميتة لا يقابل فيها الموت وجهًا لوجه، ولكن يقابلها هي.. ليلى. هل تنقذه ليلى؟ يخرج من الدار هربًا من الذكريات لكن لا فائدة؛ الذكريات بداخلك. يجلس مرة أخرى أمام الترعة الباردة كقلب القرية المتبلد. هل أنقذتك من قبل؟ من طردك من الدوّار؟ ومن سواه؟ هو هامان. هل كان هامان موجودًا وقتها؟ كان موجودًا بالطبع يوسوس في رأس فرعون، ما شأن الحلب بالمدارس؟ وما شأننا بوجع الدماغ؟ وآسية ماذا قالت؟: "لقد أنجبنا ولي العهد؛ فألقِ بالصغير في الشارع"، من ألقى بك في اليم يا موسى؟ ليلى. ها هو خوار

العجل الذهبي يعلو في شوارع القرية. إلى أين يأخذك النهر أيها الصغير؟ إلى القاهرة بالطبع. لا، القاهرة تبتعد. النهر ليس على هواك. ها هي ليلى تلوِّح إليك بمنديلها من بعيد، هل تقترب منها أم تبتعد؟ لا تبكي يا ليلى. أجبْ: منْ ألقى بك في اليم؟ أجبْ: من؟

شعر عبد النعيم بالغضب، كيف يهزم ذكريات الهزيمة؟ ربما عليك أن تتحداها فقط. تأمل عبد النعيم الترعة المظلمة الملعونة. وماذا عن هواجس الطفولة القديمة؟ لماذا لا ينزل الترعة سوى الأطفال؟ حتى الأطفال لا ينزلون إليها سوى في النهار، أما في الليل فلا ينزلها أحد، حتى مجانين القرية لم يفعلوا. مجانين القرية كانوا أعقل منك يا عبد النعيم. خلع الملابس الكثيرة التي يرتديها والأوجاع وألقى بها أرضًا، ووقف عاريًا أمام الترعة، يشعر برجولة غريبة تسري في جسده، لقد ضربت شيخ الخفر أيها المجنون! يضحك. يشعر برجولة غريبة جدًّا لم يشعر بها من قبل، ربما بسبب العري، يريد مضاجعة الترعة بطريقة ما. لكن كيف؟ يتحسسها بالقدم اليمنى دون أن يجرؤ على النزول إليها، المياه باردة تزغزغ الأصابع. يتحسسها بالقدم اليسرى فتشده إليها ويسقط فيها. المياه تداعبك، الترعة امرأة لعوب شبقة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل. يقرر عبد النعيم مبادلة الحب بالحب؛ فيغوص فيها في قبلة عميقة ساحرة.

الترعة دافئة، فماذا كان يخيفك منها؟ ليس فيها تلك التماسيح الكبيرة، ولا ذلك الوحش الأخضر، ولا تلك الأسماك الصغيرة الشرسة ذات الأسنان الكبيرة، وليست فيها النداهة عيشة، ولا ضحكات تلك

الطفلة الشريرة. كلها خرافات. ها هو يسبح سعيدًا في الليل، مع النجوم المتناثرة والقمر المستدير، في السماء، مع الملائكة وجنيَّات الأحلام. ها هو بين عالمين في برزخ سري، سحري وبديع.

يستلقي عبد النعيم فوق ظهره على المياه وهو يتأمل تلك الأشياء المدهشة. يصفر لحن الربابة العذب وهو يدندن قائلا: "عندي بنية صبية الريق بيري السماتي"، فيسمع صدى اللحن يتردد وراءه بغير إتقان. ينتفض ويتوقف لكن الصدى لا يتوقف عن الدندنة. ينظر إلى الضفة، حيث يأتي الصوت، فيسمع ضحكة أنثوية فاتنة آتية من الظلام. ينتفض مرة أخرى، الضحكة مدهشة وساحرة مثل الموسيقى ومغرية كضحكة امرأة يوسف. هي ضحكة النداهة عيشة، ومن سواها؟ يعلو صوت المرأة: "تعال يا نعيم يا جاري، تعال". يخرج عبد النعيم من الترعة مبللا بالدهشة والماء، ويقترب من الصوت مسحورًا؛ فيلمح ظلًّا أنثويًّا يجري من وراء النخلة إلى شجرة الصفصاف، هناك حيث الظلام والوحل أكثر. يقترب من الظلام وهو يتساءل: "ليلى؟"، يسمعها مرة أخرى تقول: "تعال يا نعيم. تعال"، يقترب لكن الظلام يحول أكثر. يقترب فيشم رائحة الفجر الممتزج بالورد والندى، ويسمع صوت الكروان يغني في السماءِ بـ:"الملك لك لك لك".

تخرج الفتاة من الظلام فجأة وتقف أسفل ضوء القمر الفضي. يا الله. عارية تمامًا مثل عبد النعيم ولا ترتدي سوى مضنّة صدر ذهبية على شكل تفاحة الفردوس المحرمة. مضنة ليلى؟ تنام المضنة بين مفترق النهدين.

يتأمل عبد النعيم الفتاة بذهول. يتأمل قدميها الحافيتين المتسختين بالطين، قدمان جميلتان وردفان بيضاوان ممتلئان، وخصر مرسوم، وتفاحتا صدر بحلمتين بارزتين باردتين مشتاقتين للقبل والبلل. للفتاة شعر أسود غجري مسدل فوق كتفيها وظهرها، وعينان سوداوان ساحرتان كحلاوان. يتراجع عبد النعيم مذهولا للوراءِ وهو يقول: "عيشة" هي ليست ليلى وإن كانت تشبهها، هي صورة من ليلى، أو عيشة، لكنها أبدًا ليست ليلى.

هجمت النداهة على شفتي عبد النعيم بجوع فاحتضنها بدوره بجوع كأنما يحتضن ليلى. أليست صورة منها؟ يريد أن يردَّها في الضلع المنتزع من صدره. يقبلها بجنون وشهوة ثم يضاجعها وهي تتأوه بلذة مع لهاث عبد النعيم. تقول: "ضاجعني حتى تأتي القيامة"؛ فيضاجعها بقوة. هل كانت ليلى لتقول مثل هذا؟ ربما قالتْ: "ضاجعني حتى أصير سماءك وتصير سمائي". تضحك الفتاة وهي تشير إلى نهديها: "انظر، عسل". فيلعقهما عبد النعيم بجنون. تشتعل الشهوة أكثر في جسديهما حتى تكاد أن تحرقهما. يقسو عبد النعيم على جسد المسكينة، لكنها لا تبالي وتطلب المزيد. تتأوه وتتأوه قبل أن تطلق صرختها الأخيرة فيهدأ الجسدان أخيرًا. وينامان عاريين فوق الطين، وعلى جلدهما تلمع قطرات العرق أسفل ضوء القمر.

لم تكن المرأة ليلى، صار متأكدًا من ذلك. صغيرة هي، في العشرين من عمرها، وجسدها يختلف كثيرًا عن جسد ليلى. لطالما رآه في الدوّار وهو

طفل عندما كان يتلصص عليها من وراءِ الباب وهي تستحم في الطشت وتدعك نهديها الطريين بالصابون، وكذلك تغسل أصابع قدميها التي لم يذكر أن رآها مرة واحدة متسخة. لكنها اكتشفت ذات يوم جريمة التلصص تلك، عندما خرجت عارية تبحث عن منشفة، كانت كل الخادمات خارج الدوّار وفوجئت بالصغير يقف أمام الحمام ويتلصص عليها، لكنها لم تغضبْ، لم تعاقب عبد النعيم على ما فعل، بل العكس، صارت تأخذه معها إلى حمامها كلما غابت الخادمات من الدوّار. يمسك لها الكوز ويسكب المياه فوق شعرها الأسود وظهرها المدهش، ويليف جيدها جيدًا بالصابون، ومؤخرتها الناعمة. يتعمد لمس أجزاء من جسدها بين الحين والآخر فتضحك وتنظر نظرة ساحرة ولا تقول شيئًا. وبعد الانتهاءِ من حمامها تقف فيرى كل أسرار النساء فيها، ويلف جسدها الرائع بمنشفة كبيرة، ثم تقبل شفتيه بقبلة سريعة وتهمس بأنفاسها الدافئة أن هذا سرهما الصغير. هو يعرف جيدًا جسد ليلى، وتلك التي ضاجعها من قبل، امرأة ساحرة الجسد، فاتنة وشبقة، لكنها أبدًا ليست ليلى. فكيف تشبهها إلى هذا الحد؟ ومن أين جاءت بمضنة الصدر الذهبية؟ من ستكون غير عيشة؟ لكنها هربت فجأة، فلم؟ وكيف لم يفن بعد مضاجعتها؟ ظل عبد النعيم يناديها لكنها كانت قد رحلتْ. ارتدت عباءة سوداء غريبة الشكل وغابت في الظلام. ظل عبد النعيم واقفًا في الظلام للحظات يحاول الاستيعاب، فكر بمطاردتها، بحث عن ملابسه التي ألقاها عند النخلة فلم يجدها. شعر بالحيرة والخوف، وسار عدة خطوات عاريًا حتى دخل داره الصغيرة.

3
الهوى

من لم يصُنْ سرّ مولاه وسيّده.. لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

غريبة هي القرية. تتبدل حالها من يوم لآخر، منذ عدة أسابيع فقط بدت الأمور أفضل. واليوم، على امتداد شارع الخمارة يجلس السكارى مستندين على جدران البيوت والمسجد، والنساء جالسات مخمورات كذلك وفي أيديهن أكواز النبيذ علنا. أين أنت يا شيخ عبد الغني؟ ماذا لو طال عمرك قليلا ورأيت القرية اليوم؟ السكارى يستندون على جدران المسجد، والفتيات الجميلات كالفراشات ذوات الجلاليب المزركشة وهن يتسللن على ضوءِ القمر ويضاجعن أجسادا سوداء غريبة عند النيل، كأن لعنةً ما قد أصابتَ القرية. تتعالى صيحات الصبايا الصغيرات وهن

ينْطُطْن الحبل وتمتزج بصيحات الصبيان، ها قد عاد الأطفال مرة أخرى للّهْو في الشارع و لم يعد الحفر. الشارع مزدحم بالمارّة والألوان والروائح والذكريات، تتداخل الألوان في بعضها، لون القلل بالجلاليب المزكرشة بجلاليب العجائز السوداء والجدران، ولون السماء الترابي البائس. تتداخل هذه الألوان وغيرها في أعين السكارى؛ فيرون الزحام بطريقتهم الخاصة، الناس يقفون فوق رؤوس بعضهم بعضًا، أجساد بغير رؤوس أو أقدام بغير أجساد، ونهود مقطوعة هنا وهناك.. وأرداف.

الشارع مملوء عن آخره بالإنجليز وفارغ من الخفر. داخل الخمارة يجلس جنود الإنجليز فوق الكراسي الخشبية، بينما يجلس شيوخ القرية ورجالها فوق الأرض. يشرب الجنود بعض أنواع الخمر الغريبة الأعجمية، بينما يكتفي أهل القرية بالنبيذ والبوظة وعرق البلح. يستوي الناس ها هنا في الخمارة تمامًا كما كانوا يستوون داخل المسجد، لا فرق بين قروي وأعجمي إلا بشدة السكر والعربدة. الناس مرهقون اليوم، أعينهم مغمضة أو نصفة مغمضة، وأخرى جاحظة أو منتفخة ومحمرة. الأجساد ملقاة في كل ركن، ناعسة وهادئة. لكن أحيانا تفور الخمر في عروق أحدهم، فينهض ويرقص فوق الكراسي والخوان قبل أن يسقط وحده على الأرض مثلما كان. بالقرب من الخواجة ألكسندر كان الأطفال –عفاريت القرية– يجلسون ممسكين بأكواز البوظة. تفوح من أفواههم رائحة الخمر والخيبة. يضحكون حتى تحمر أعينهم ثم يسكتون فجأة عندما تهاجمهم الذكريات. بالأمس كانوا يمقتون هذه الخمارة وصاحبها والعمدة والإنجليز فماذا حدث؟ غريبة هي القرية! ربما أدركوا

أنهم كانوا محض أطفال حُمق، فقرروا النضوج والتصرف مثل الكبار. ماذا يفعل الكبار؟ في الحقيقة لا يفعلون شيئًا، يسكرون في الخمارة أو بجلسات السمر، لذا قرر جميع الأطفال تقليدهم، ما عدا الصغير حسين، هو الوحيد الباقي على عهد الشيخ عبد الغني. فماذا حدث؟ ماذا عن عبد النعيم؟ ومتى دخلوا الخمارة للمرة الأولى؟ لا يذكرون متى دخلوها مثلما لا يذكرون لمَ كانوا يحاربونها من الأساس. الخمارة ليست سيئة كما كانوا يظنون، وألكسندر يبدو رجلا طيبًا، بل إن الخمارة في الحقيقة جميلة للغاية من الداخل بقدر جمال حكايات عبد النعيم التي لم يعد يحكيها. الخواجة يقص عليهم حكايات أجمل من حكايات عبد النعيم المملة. يقدم لهم البوظة مجانا ويقص لهم حكاية مدينة الضباب الأسطورية. يصلي على النبي قبل أن يبتدئ الحكاية بـ: في قديم الزمان، وجدت تلك المدينة الخرافية الرائعة على نهر التايمز. المدينة تُدعى لندن، تحتوي على جسر عظيم أثري وساعة شامخة فوق السماء، كالنخلة التي كانت تستند عليها إيفا عندما نزلتْ للأرض. يوجد أيضًا قصر للملوك –مثل قصر سليمان– يدعى: قصر باكنجهام، وتوجد كنيسة عظيمة ذات قبة كبيرة كقبة مقام بو هشام وفوقها صليب ذهبي، هذه كنيسة القديس بولس التي يرقد فيها القديسون والشهداء وأولياء الله الصالحون. لم يع الأطفال اسمًا واحدًا من الأسماء التي تفوه بها ألكسندر، لكنها أضافت الكثير من السحر والغموض إلى مدينة الضباب تلك؛ فتخيلوها بصورة أروع ألف مرة من قريتهم البائسة الملعونة.

يحكي الأطفال أيضًا للخواجة مثلما يحكي لهم، يحكون عن

صديقهم القديم الذي ما عاد يجلس معهم عند الترعة، وفضل الجلوس وحده كشجرة عديمة النفع عند الساقية المهجورة. غريب أمر هذه الساقية التي لم تتعلقْ بها الخرافات عكس كل الأماكن في القرية، فلم؟ ربما غدًا يحكي الناس عنها الكثير من الأساطير ويروون المدهشات. هنا يجلس عبد النعيم ويفكر في تلك المرأة التي ضاجعها في الطين. وهنا أيضًا يطارد طيفها في الحقول والأزقة. يحكي الأطفال عن عبد النعيم ويفضحون كل الأحلام التي راودت صديقهم القديم. يقولون: "رآك عبد النعيم في الحلم قبل مجيئك للبلد، كان يقول دومًا: في البلد ثلاثة أغراب. أولهم أنا وثانيهم خواجة، وثالثهم شاب سيأتي من بلاد الله البعيدة". الشاب يرتدي بردة بيضاء وسبحة طويلة متدلية من جيده، ويمسك بعلم أزرق غريب ويرقص بين الناس سعيدًا وهم يهزون رؤوسهم ويرددون: "الله.. الله.. الله". لم يعرفْ عبد النعيم منْ ذلك الشاب، مثلما لم يعرفْ أيضًا من تكون تلك المرأة التي ضاجعها في الطين. ولمدة طويلة ظل جاهلا بحقيقتها حتى عرف. والناس كانوا يعرفون أيضًا لكنهم كعادتهم يخشون الكلام، وحده كروان تلك الليلة قد أخبره بكل شيء دون خوف.

اسمها سلمى. تعرفها منذ الصغر وإن لم ترها سوى مرة واحدة، حين طاردتّها في ساحة القرية. نعم، هي تلك الطفلة الصغيرة الشيطانة التي سرقت ملابسك. كانت تعيش في دار قريبة من دارك، تحبّ مراقبتك لأنك معشوقها السري الصغير. تراك هائمًا في الطريق إلى الكتّاب أو عند الترعة أو في الوديان. تنظر دومًا إلى السماءِ بعينين ممتلئتين بالدموع. كانت تتساءل: لماذا تبكي حين تنظر إلى السماءِ ولا تبكي حين تراها؟

لكنك لم تكنْ تراها أصلا. كانت أعينكما تلتقي أحيانا فتتجاوزها، وترى من خلالها، كأنها خُلقت من ماء شفاف. كنت منشغلا عنها دومًا بالتأمل والصلاة. أما هي فقد كنت أنت اختيارها الأول في الحياة. قامت بأشياء عديدة كي تلفت قلبك إليها، تضحك دومًا دون سبب حين تمر بجوارها، تبكي، تصرخ، تسقط على الأرض، لكن لا فائدة. تمر بجوارها ولا تراها، وحدها القرية كانت تراها وتضحك من قلبها. لكن سلمى، الطفلة الصغيرة العاشقة، لم تيأس، وقررت القيام بحيلتها الأخيرة، حيلة غبية حقًّا، لكنها بدت في عينيها السوداوين مدهشة. قررت الذهاب إلى الترعة وسرقة ملابسك الملقاة أسفل النخيل. ما الفائدة منْ فعْل هذا؟ أمر مضحك هي لا تعرف أيضًا. ربما كانت تنتظر أن تتحدثا، وتقولا أي كلام؛ لكنك نهرتها، وشتمتها وتوعدتها بالضرب؛ فخافت وأخرجت لسانها بكبرياء كعادتها، لكنك غضبت أكثر، طاردتها في الساحة حتى تاهت منك، كانت تختبئ في المسجد لكنك لم ترها. ها هي في الشباك القريب تضحك وهي تراقبك واقفًا –كالأحمق– عاريًا بينما يقترب الناس منك، يرمقونك بدهشة فتتذكر عُريك، وتجري مسرعًا كالمجنون عائدًا إلى الترعة فتظل تضحك هي كثيرًا، ثم تنظر إلى ملابسك بين أيديها وتشمها بعمق، ما أجمل كنزها الصغير! رائحة العرق المالح وبواكر الرجولة، تلك الرائحة التي لم تتركْ أنفها حتى اليوم. فماذا حدث بعدها ودفعها لرؤيتك بعد عشرة أعوام؟ ذات الرائحة التي حملها الهواء إليها وسقوط حارث. شمت رائحتك ورائحة الأخبار فاجتاحت الشهوة جسدها بعنف وقررت مقابلتك بأية طريقة، تلك المقابلة التي تأخرت أعوامًا كثيرة. لكن

لماذا هربتْ بعدها أيها الكروان؟ ألا تعرف بعد أيها المسكين؟ لأنها امرأة متزوجة. ارتدت عباءة زوجها السوداء وسارتْ حافية في الطريق إليك حتى وجدتك عند الترعة، فاختبأت خلف النخيل بانتظارك في الطين والظلام. وبعدها استسلمت للأشياء التي لم تكن مقدَّرة من قبل. أهي خطيئتها أم خطيئة القدر؟ بدت أقرب للعاهرات الغجريات اللاتي يسكنّ في أطراف القرية وهي تتأوه وتتغنَّج في حضنك، لكنها في الحقيقة كانت تتصرف على سجيتها تمامًا.

ماذا عرف عبد النعيم عن تلك المرأة، هل يعرف كل شيء؟ ربما يعرف كل شيء. وماذا يجهل عما يحدث للأطفال في القرية؟ يجهل كل شيء. لا يعلم شيئًا عن جلستهم الجديدة المنكرة في الخمارة وسكرهم، لا يتخيلهم وهم جالسون الآن يشربون البوظ، ويسكرون ويُعرُّون صديقهم وأنفسهم بالحكايات. يقولون للخواجة: "أتدري يا خواجة، بماذا حلم عبد النعيم أيضًا؟"، ويحكون عن ليلى وفراشها، يحكون كل شيء ويضحكون. ثم يقولون بحزن مفاجئ: "نحن كنّا نحلم أيضًا. أتدري بمَ؟ كنّا نحلم بقتلك". ثم يضحكون، ويغرقون في الضحك فيضحك الخواجة معهم قبل أن يصمتوا مرة أخرى. يتذكرون صديقهم الذي اعتزلهم ونسي وصية الشيخ، فيحزنون ويغرقون في البوظة؛ لعل السكر ينتشلهم من وحدتهم ويحملهم إلى مدينة الضباب البعيدة.

لم يكن عبد النعيم يفكر في الأطفال أصلا، نسيهم بالفعل ونسي وصية الشيخ عبد الغني. كان يتأمل وردة جميلة بجوار الساقية تجاهد

للحياة. من دهسك أيتها الوردة المسكينة؟ لا يهتم ولا يفكر سوى في تلك المرأة التي عرف اسمها وطفولتها وحقيقتها ودارها. قال الكروان: دارها تقابل دارك، مبنية من الطوب اللبن ومسقفة بفلوق النخيل، وأمامها سور طيني نصف متهدم ومصطبة لا يجلس عليها أحد عادة. لكنها ما عادت تعيش هنا فقد تزوجت في النهاية، على الرغم من كل العرسان الذين رفضتهم أمها، تزوجت من؟ كانت أمها تقول أن ابنتها حورية. مكتوب على الحوريات الزواج من العمدة والبكوات، مكتوب بحنَّاء سري فوق كل فرج اسم الناكح. و لم تكذبْ أمنيات الأم، فقد طرق دارهم ذات يوم أحدهم، عمدة صغير، يدعى هشام. لم تصدقْ الأم من فرحتها، وسلمى كذلك، نسيت كل شيء حتى قصة معشوقها السري الصغير. وحلمت باليوم الذي يحملها الهودج وهو يتمايل فوق الجمل إلى الدوّار الكبير. وما إن دخلت الدوّار حتى حلمت بهشام وهو يضاجعها. أين غرفة النوم؟ وفي غرفة النوم ظلت تصرخ كثيرًا من شدةّ اللذة. كان هشام فحلا، حتى إن صرخاتها عذبت بقايا نساء الجبانة المحرومات، هكذا قال كروانها. لماذا لم تأت بعد تلك الليلة؟ ربما تكون قد ندمت. من أنت ومن العمدة؟ تذكر. ربما لا يكون هشام فحلا حقًّا كما تدعي القرية والكروان الكذاب؟ لم لا يكون طفلا عاجزًا أحمق ولأجل هذا جمعتهما تلك الليلة في الطين؟ لكن من يعرف الحقيقة حقًّا في تلك القرية البائسة؟

لم يرها عبد النعيم مرة أخرى، لم؟ ربما لأنهما تضاجعا في الطين. ماذا لو تضاجعا في الترعة مثلا؟ ربما كان سينجب فتيات مدهشات لهن ذيل سمكة وجسد بشري. وماذا لو ضاجعها في حديقة الدوّار الجميلة؟ كان

سينجب فتيات مدهشات لهن عبير الورد. الورد، الوردة. لماذا تموت هذه الوردة المسكينة؟ من دهسها يا ترى؟ لا أحد يأتي هنا سواك يا عبد النعيم. ماذا لو لم يضاجع تلك المرأة؟ ما كان ليأتي هنا وما ماتت تلك الوردة.

أين أنت يا شيخ عبد الغني؟ منذ شهر واحد فقط بدت الأمور أفضل. انقض عبد النعيم على شيخ الخفر فسقط منهزمًا وبعدها لم تر القرية خفيرًا واحدًا في الطرقات، و لم ينتقم العمدة؛ فتفاءل الناس وشعر الأطفال أنهم وجدوا شيخهم أخيرًا. لماذا لم ينتقم العمدة؟ وكيف سقط عبد النعيم أسفل أقدام ذات الخلخال؟ لم يكنْ عبد النعيم يوسف، ونسي وصية الشيخ حين قال: "الأطفال يا نعيم، إياك أن تغفل عنهم"، كان حسين هناك يومها برفقة عمته العجوز العمياء. وكانت صامتة طوال الوقت لا تتكلم حتى نظر الشيخ إلى السقف، هنا فقط نهضت وصرخت وجزعت ورددت: "ابتعدوا. ابتعدوا يا أولاد الكلب. مالكم والشيخ؟"، فقد رأتهم بعينها العمياء وهم يأخذون الشيخ معهم ويعرجون إلى السماء. وفي الطريق إلى الدار قالت بحزن للصغير: "لقد عاتبني الشيخ وقال لي كيف تشتمين يا صفية ضيوفًا قد جاؤوني من عند ربي؟"، فبكت بعينيها البيضاوين كثيرًا.

كان الصغير حسين لا يملك في هذه الدنيا سواها، العمة صفية العمياء. مات والداه بعد عام واحد من ميلاده بمرض مجهول. قالت العمة إنهم سيُشفون غدًا من موتهما فصدقها الصغير لكنهما لم يفعلا، ربما كذبا على العمة الطيبة. تقول العمة أشياء أخرى عجيبة عن الجن الذين يعيشون معهما في الدار ويحاولون طردها؛ لأنها دهست رأس جني صغير دون

قصد، فقرروا الانتقام من يومها. سرقوا عينيها بالأمس واليوم يريدون طردها من دارها، وغدًا لا يعرف أحد ماذا سيفعلون. لم تعد العمة ترى شيئًا من عالم البشر، انفصلت تمامًا في عالمها الغرائبي الخاص الذي لا يراه سواها، مزيج من الجن والملائكة والشياطين. تعرف هي الكثير عن الجن وتعرف أيضًا شجرة العائلة التي تربطهم بالشياطين، وتعرف قصص حب كثيرة قامت بين الجن والإنس. تمدح دومًا فتيات الجن المثيرات؛ لأنهن مخلوقات من نار عكس فتيات الإنس المخلوقات من طين بارد. تحذر الإنسيات دومًا من عشق رجال الجن؛ لأن ماءهم من حمم البركان، وتلك تحرق الأرواح حرقًا لكنها مع ذلك لها متعة خاصة لا مثيل لها، لكنها للأسف لا تحدث سوى مرة واحدة في العمر، وبعدها الموت. يحب الصغير حسين العمة صفية كثيرًا؛ فهي كل ما تبقّى في الحياة بعد رحيل الشيخ عبد الغني وعبد النعيم أيضًا، لكن لا يحب حكاياتها الغبية. يمسك يديها الخشنتين ويساعدها في السير بالطرقات، فتحذره قائلة بين الحين والآخر: "اصبر يا ولدي حتى يعبروا هم أولا"، فيتوقف ويعرف أنها تقصد بعض أعدائها من الجن.

ماذا سيحدث لو رحلت العمة أيضًا؟ ربما حينها فقط سيموت الصغير منهزمًا. يجب أن يظل معها أطول وقت منصتًا إلى حكاياتها الكثيرة الغريبة والغبية، فإذا رحلت يأنس بشبحها وبقايا الحكايات. لم يكن حسين يتركها أبدًا حتى تنام، فإذا نامت خرج وحيدًا من الدار ويهيم في الطرقات. إلى أين تذهب؟ لا مكان يليق بك. لماذا لا تذهب مع أصدقائك في الخمارة؟ لأنك غبي تماما مثل صديقك القديم. يحلم بكل

الأشياء التي حكاها عبد النعيم، مدرسة البندر والبنايات العالية. ترى كيف ستكون القاهرة بلد المآذن وجامعتها؟ وعده عبد النعيم أن يساعده في الالتحاق بمدرسة البندر و لم يفعل حتى اليوم. كيف سيفعل؟ هو فقير وذليل امرأة. ألم يعدْهم من قبل ألا يتركهم؟ ألم يعد الشيخ عبد الغني فخان العهد؟ وحدها ليلى هي القادرة على تحقيق الأحلام؛ فلماذا لا تذهب إليها وتترجاها كي تساعدك وتشكو إليها عبد النعيم أيضًا؟. ألم تقل لعبد النعيم من قبل: "لك ما تريد"، فلماذا لا تقولها اليوم أيضًا؟ ما الفرق بين الأمس واليوم؟ ذات الذاكرة والأوجاع والأحلام.

سار الصغير حسين في الطرقات متعثرًا في الأحجار الصغيرة ومتشبثًا بطرف ذكرى عبد النعيم. ألقى حصى صغيرة في الترعة كأنما يرجمها ويلومها على ما حدث، فظلت الحصى تقفز من موجة إلى أخرى حتى استسلمت للغرق. أكمل السير في الشوارع التي أخذت صورتها القديمة واتسعت الحقول الخضراء وغطت عورة الأرض. كل تلك الحقول والغيطان الشاسعة ملك للعمدة وكبراء البلد، وهم أهل البلد، ماذا لهم؟ دلف الصغير إلى طريق الياسمين الضيق واستنشق زهرة ياسمين بحزن، رائحتها جميلة ولكنهم ليس لهم شيء، حتى الورود هناك في الدوّار. ها هو الدوّار يقترب من الصغير وها هي حديقة الدوّار وشرفة ليلى. ما أقربها! ترى ماذا سيقول لها حين يراها؟ أعيدي لي طفولتي وصديقي؟ هل يصرخ فيها ويعنفها لأنها صارت كخيال المآتة لا تفعل شيئًا وتركت القرية للغربان والثعالب؟ ظل الصغير واقفًا قليلا أمام الورود الحمراء التي يحبها عبد النعيم والورود الزرقاء التي يراها للمرة الأولى قبل أن يجري

فجأة ويطارد الفراشات في سعادة بالغة. كأنما نسي كل الهموم التي جاء بها، ثم توقف أمام الدوّار الرائع أسفل هذه السماء وهو يتساءل: أيهن يا ترى غرفة ليلى؟ يشم رائحة جميلة آتية من إحدى الشرفات فيجري صوبها مناديًا: "ست ليلى؟"، وينتظر قليلا فلا يسمع ردًّا. ربما هي مريضة بالفعل كما تقول القرية، هل يعقل أن يقتل الله ليلى ويستجيب لدعوات شيخ الخفر؟ هل يجرؤ ملائكة الموت على قبض روحها؟ لا، هي حبيبة الرب. لماذا لا تموت سوى الأشياء التي نحبها. يجري مرة أخرى إلى باب الدوّار، ويطرق، يطرق كثيرًا، وينادي "ليلى.. ليلى.. يا ست ليلى"، لكن لا أحد يلبي حلم الصغير. الدوّار جميل أسفل هذه السماء الرائعة والشمس قريبة جدًّا من شرفة ليلى، لكن ليلى بعيدة جدًّا عن القرية.

في طريق العودة التقى الاثنان، عبد النعيم وحسين، كغريبين. كان الصغير عائدًا حزينًا إلى القرية بعدما فشل في مقابلة ليلى، بينما كان عبد النعيم هائمًا كالمعتاد وراء طيفى سلمى في طريق الدوّار. لم ير عبد النعيم حسين بالطبع وهو يمر بجواره، لكن الصغير توقف آسفًا على نهاية الشيخ المشينة. أكمل عبد النعيم السير بين الأشجارة الموجودة على جانبي الطريق، والتي بدت تريد أن تنطبق فجاوزها مسرعًا حتى وصل أخيرًا إلى الدوّار. الدوار مهيب خلف أسواره العالية التي لا يُرى شيء من وراءها، الكلاب تنبح من وراء الأسوار غاضبة من فضول الغرباء والطامعين، الخفر يحرسون الدوّار من كل ناحية في يقظة ونشاط. ظل عبد النعيم واقفًا وراء

الأسوار قليلا؛ يريد رؤية شرفتها بأية طريقة، ليست شرفة ليلى بالطبع فهو لا يتذكرها من الأساس، وإنما شرفة غاوية الترعة، تلك التي بدت كخرافة جميلة لم يُرد لها الزمن الخلود. أما الصغير حسين فقد أكمل السير حتى وصل إلى القرية بخطوات مثقلة بالهموم، ما أشبهها بخطوات نعيم بالأمس! شعر بشيء مريب، أين الناس؟ مر بالترعة فلم يُلق عليها السلام. هل أخطأ حين لم يفعل؟ الترعة خرساء بدورها بعدما غاب الأطفال عنها، فيها شيء مريب. ما هذا الصمت؟ لمَ لا تتكلمين؟ لكن الصمت لم يدم؛ فقد عادت الضجة فجأة محملة بالصياح والصرخات والاستغاثات. علت صرخة امرأة: "أغيثووووني"، جرى الصغير واختبأ وراء شجرة الترعة الكبيرة، ماذا يحدث؟ سكتت المرأة و لم تنطقْ. هل عاد الخفر؟ هناك في شارع الخمارة كان يوجد العديد من الرجال الملثمين الممسكين بالبنادق. هل عاد الخفر للانتقام من القرية؟ أين يذهب؟ كيف سيعود للدار؟ الدار! العمة صفية. رحمتك يا رباه. هو يعيش في الشارع المجاور للخمارة، من هؤلاء؟ لم يعرف الصغير ماذا يفعل؛ كتم الخوف أنفاس الجميع ودقات قلوبهم. صمت خانق، حتى الريح كانت خرساء. لم يتحركْ أحد هناك من الناس، في البداية حاولوا العودة لديارهم، لكنّ الملثمين اقتحموها دون خوف أو حرمة وسرقوا كل ما قابلهم، أخلاق قطّاع طرق، أبناء الجبل، الجبل. فكر الصغير بالعودة إلى عبد النعيم. ماذا؟ هل صار غبيًّا مثل الحلبي الأحمق؟ هل يشعر العاشق الهائم بما يحدث في القرية أصلا؟ والخفر أين هم؟ لم لا ينزل المطاريد من الجبل فيساعدوهم؟ الجبل! يا للمسكين الساذج! كيف ينقذونهم من أنفسهم؟

كان المطاريد يملأون شوارع القرية، أو نصفها الفقير، ويقفون فوق أسطح الديار مثلما أمرهم زعيمهم حسن السعران، أمل القرية الأخير. بينما كان حسين لا يزال واقفًا وراء الشجرة الكبيرة يراقب ما يحدث حتى قرر أن يتحرك أخيرًا؛ لن ينتظر ها هنا للأبد حتى يسمع خبر وفاة العمة أو سرقتها؛ هي كل ما تبقى للصغير، لكن كيف سيجدها في الزحام؟ جرى الصغير مسرعًا في الساحة، مختبئا وراء عربة كارو، صخرة كبيرة، جذع شجرة، حتى وصل إلى المسجد، وهناك قرر أن يتسلق تلك المئذنة العالية؛ سيرى أفضل من فوق، سيعلو فوق الديار والناس حتى يصل إلى ما يريد، حتى يجد العمة المسكينة العمياء. هل تسلق أحد من قبل المئذنة؟ أمسك الصغير بها وبدأ التسلق، المئذنة مستديرة ولها زخارف كثيرة، ولزخارفها بروز. كيف استطاع الأرنب الانتصار على كلاب الصيد؟ آه فقط لو يعرف الإجابة!. صعد أكثر فأكثر وهو يرى الأرنب يجري ويجري في الطرقات، يقفز فوق الديار والحواجز. صعد الصغير أكثر فأكثر حتى اقترب من النهاية. لماذا لم يخبرهم الشيخ بحل اللغز؟ وقف بأعلى نقطة في القرية، فوق المئذنة، وأخرج النبلة القديمة وترقب، لحظة صمت قصيرة، ياه! لماذا يشتاق فجأة إلى سماع الأذان؟ يسمع صيحةً يعرفها جيدًا تأتي من الأسفل، فيلقي نظرة، نعم هي. كان يعرف أن هذا سيحدث، ها هي بالقرب من دارها، تسير العمة في الشوارع وهي تتعثر في العفاريت والجان. تتلفت حولها لكنهم يتكاثرون عليها، تعلو ضجتها فيقترب منها اثنان من المطاريد، يشدونها إليهم لكنها تذعر أكثر، تدفعهم، وتظنهم أحد أعدائها. تصرخ: "ابتعد عني يا ابن الكلب"، يصفعها أحدهما

وتدمع عين الصغير. يشد شريط النبلة بقوة، الرؤية مشوشة بخيوط الماء، فلتصبر قليلا، هناك أرنب قادم من بعيد، يجري ويجري، اصبر، تسقط الدمعة أخيرًا فتصفو الرؤية، الحقيقة واضحة. يترك الشريط فتنطلق الحصاة الصغيرة الغاضبة وتصيب عين الرجل اليسرى. يسقط أرضًا وتنفجر الدماء، يصرخ، يصرخ كثيرًا، ويطلق الرجل الآخر مباشرة الطلق الناري تجاه المئذنة. طلقة واحدة فقط ثم صمت خانق لوهلة، قبل أن تسقط جثة الصغير من سماءِ المئذنة السابعة حتى الأرض.

لا شيء بعد هذا، ظل الصمت، صمت خنّاق. رحل المطارید بعدما أشعلوا النيران في المسجد. وعاد عبد النعيم على صوت الطلق الناري وهو يقرأ رسائل الدخان. لم يفهم شيئًا، صمت وفقط. تولول النساء – لكن بغير صوت – ويستغفر الرجال ربهم بدون نطق. لم يسمع عبد النعيم شيئًا، أي شيء. رأى بعضهم يحاول إطفاء النيران. لماذا يزدحمون هناك؟ اقترب مذعورًا وهو يرتعش، الرجال يبكون والنساء يولولن فلمَ لا يسمع شيئًا؟ صمت خنّاق. اقترب أكثر من الناس، جثة منْ تلك؟ لم يقدر أن ينطق، صمت، اقترب أكثر، لا يمكن، سقط على الأرض عندما وجدها جثة الصغير المسكين الميت بطلقة نارية في الرقبة. سقط منتحبًا كالنساء، وهنا عادت الأصوات فجأة: البكاء الولولة الصراخ الندب اللطم. "لَا حول ولا قوة إلا بالله"، "إنا لله.. إنا لله"، ماذا؟ يبكي عبد النعيم، يبكي الفقد، ما فائدة الدموع اليوم؟ لا شيء، ما فائدة الندم؟ أغلق الله أبواب السموات فلا توبة بعد الموت ولا غفران.

4
الكشف

مضى الجميع فلا عين ولا أثر.. مُضِي عاد وفُقْدان الأُولى إرم

لم يكن هنالك أحد في الجبانة سوى عبد النعيم، فالساعة ساعة فجر والموتى نيام. ظل جالسًا يبكي رحيل الصغير أمام قبره ويستغفر الله بقراءة الفاتحة فيتلعثم في المنتصف ويعاود البكاءَ من جديد. هل يفرح الموتى بزيارة الأحياء لهم؟ هل يرثيهم بكاؤهم عليهم في الليل والنهار؟ أم يقطعون عليهم خلوتهم الطويلة؟ وضع عبد النعيم بعض التفاح أمام قبر حسين، وقال بعينين متورمتين من شدة البكاء: "أعرف أنك مخاصمني ولا تريد مقابلتي، ولن تأكل من يدي شيئًا، لكنها عمتك وربي هي من أرسلت إليك التفاح، فكلْ يا صديقي أرجوك"، لكن الصغير لم يخرجْ

من القبر و لم يأكلْ. نهض عبد النعيم وألقى نظرة طويلة على شواهد القبور الرخامية والحجرية والقبور الأخرى المجهولة التي ليس لها شاهد، وتوقفت عيناه على أشجار الجبانة الهزيلة الصفراء، لماذا تفقد الأشجار نضارتها في المقابر؟ ربما لا تجد الماء وربما فقط تحترم ملكوت الموت.

سار عبد النعيم بخطوات بطيئة ثقيلة حذرة بين القبور والأحواش؛ خشية أن يزعج الموتى، حتى وصل أخيرًا عند ذلك القبر المفتوح، حيث ينام، يترك جسده يرتاح قليلا في ظلمة القبر الموحش بعيدًا عن ظلمة النفس. كانت هذه هي نصيحة حارس المقابر، الشيخ التسعيني، الذي على الرغم من عمره الطويل لا يزال فتيًّا كأنما يسرق القوة والشباب من أجساد الذين رحلوا مبكرًا عن الحياة. قال حارس المقابر لعبد النعيم: "الأرض يا ولدي، لن تجد أحن عليك من الأرض، سأجد لك قبرًا يتسع لهمك فلا تحزن". قبلها لم يعُدْ عبد النعيم يستطيع النوم مثل بقية الخلق. يسير هائمًا في شوارع القرية وأزقتها، يمر بالخمارة والبقالة والمسجد والطاحونة ويجلس قليلا عند الساقية المجهورة، قبل أن يكمل السير حتى الدوّار وهو يردد مقولة واحدة: "العمدة وحسن السعران قتلا أخي الصغير"، لا أحد يرددها وراءه، الناس يهربون حين يسمعونها بينما يتجاهلها الخفر، بأمر العمدة، فليس على الميت حرج.

ينام عبد النعيم في ذلك القبر، فيسافر إلى عالم مجهول ويرى العديد من الأشياء المدهشة التي لا يعرف الأحياء بوجودها. يقابل الموتى وهم يجلسون في دوائرهم ويحكون الكثير من أوجاعهم وذكرياتهم القديمة.

كانت تلك الصبية الصغيرة ذات الضفيرة هي أول من قابلها، رآها أول مرة تستند بوجهها على شجرة هزيلة لها أفرع مخيفة وهي تعُدُّ:

واحد.. اللــه قبل المــاءِ والنار
اثنان.. محمد والصديق في الغار
ثلاثــة.. ابــن الخطــاب المغوار
أربعــة.. علــي الإمــام الكرار
خلاص؟ خلاويص؟

عندما فتحت عينيها رأت أمامها عبد النعيم المندهش، فقالت بسعادة: "أخيرًا.. أمسكت بك". لم يعرفْ بم يجيبها، كاد يخبرها أنها بالطبع تقصد شخصًا غيره لكنه لم ينطقْ. هل يخيب أمل شخص جديد؟ لم يتعرفْ عليها؛ ومع ذلك ظلت على سعادتها وهي تقول: "كيف ومتى جئت؟ هل ستظل معنا للأبد؟ احك لي كل شيء". ماذا يخبرها؟ لن يخبرها الحقيقة، الحقيقة موجعة يا صبية!. قالت بحزن: "أنت لم تعرفني أليس كذلك؟ بالطبع لم تعرفني، لكنني أعرفك جيدًا". شدته من يده وراءها، فجريا بين شواهد القبور حتى وصلا إلى تلك الدوائر المتداخلة، حيث يجلس الموتى ممسكين بشموع صغيرة ويغنون أغنياتهم الحزينة. هل هذه شموع حقًّا؟ قالت الصبية لعبد النعيم: "اقعد"، فقعد وقعدت وأخرجت قلبها الصغير من ضلوعها، وبدأت تغني معهم بصوت حزين. كان قلبها يتوهج بين يديها كشمعة حزينة. ظل عبد النعيم يتأملها قليلا ويتأمل ذلك الشيخ

الجالس بمنتصف الدائرة. سألها: من يكون؟ فهمست: "هذا أقدم ميت في القرية". ظل عبد النعيم جالسًا يتأمل أغنياتهم الحزينة وهم يتمايلون في جلستهم مع الألم والنغم، الألم عميق. ظلت الصبية تصفِّق بجواره وهي تتمايل باكية في حزن شديد. سألها: "لماذا تبكين؟"، فلم تُجبْ. لماذا يبكي الموتى يا عبد النعيم؟

نهضا وابتعدا قليلا عن دائرة الموتى، لكن أغنياتهم الحزينة كانت لا تزال تبكيهما. عادت الصبية تسأل من جديد: تذكرتني؟ فنظر إليها عبد النعيم قليلا وظل يبحث عن وجهها في كل وجوه الموتى الذين يعرفهم. لا، لم يتعرفْ إليها ولم يقابلها من قبل، هو متأكد. وعندما أخبرها بهذا غضبت وقالت: "من قال إننا لابد أن نتقابل في الحياة حتى تعرفني؟ أنا أعرفك جيدًا ولم أقابلك من قبل قط". ثم بهت غضبها فجأة وضحكتْ: "حكى لي أبي وأمي عنك كثيرًا. ألم يحكيا لك عني من قبل؟ أنا أختك جليلة". نظر إليها بشك لوهلة وأراد أن يعتذر ويستيقظ من هذا الحلم السخيف. من قال أنك نائم أصلا؟ قالت الفتاة: "تعال معي حتى ترى فتصدق بعينيك"، وأمسكتْ يده بيدها الصغيرة مرة أخرى وسارا في الطريق، وهي تقفز لأعلى كأنها تحاول الإمساك بشيء. سألها ماذا تفعل؟ فأجابتْ ببراءة: "الفراشات"، لم ير أية فراشات؛ فأكمل السير صامتًا، بينما لم تتوقفْ هي عن القفز ومحاولة الإمساك بهن.

وهناك، عند ذات الشجرة الهزيلة التي قابل عندها الصبية، وجد ذلك الشيخ المستند بظهره على جذعها. عندما رآه الشيخ تهللت أساريره للحظة،

ثم عبست مرة أخرى مثلما كانت، عاد إليه داء الشرود مرة أخرى. قالت الصبية: "اقعد بجوار أبيك"، فقعد مسحورًا لا يمتلك قدرة على الاستيقاظ أو الهرب. قال الشيخ – وهو ينظر إلى الناحية الأخرى البعيدة–: "أمك تشتكي منك كثيرًا". فنظر هناك حيث ينظر الشيخ فوجدها، هي حقًّا، تسير ممسكة بعصا وترعى بعض الأغنام غير الموجودة. التفت عبد النعيم إلى الشيخ كأنما لم يصدقْ سوى حين رآها، وقال بدهشة: "أنت أبي حقًّا. أنت أختي؟ كيف؟"، لكن الشيخ لم يُجبْ وظل صامتًا، و لم يتحدثا بعدها من يومها. يراه عبد النعيم دومًا مستندًا على جذع الشجرة شاردًا في أشباح الأغنام والمرأة العجوز وهي تتبعهم بالعصا.

أمسى عبد النعيم يسافر إلى تلك الأرض المجهولة كلما نام في القبر. حاول الحكي مع والده مرارًا لكنه ظل صامتًا تمامًا، كما كانت أم نعيم تفعل في الحياة الأولى البعيدة. ظل عبد النعيم يسأل: "يا أبي أخبرني: من نكون؟ من أكون؟ وما قريتنا؟"، لكن الشيخ العجوز الشارد لم يجبْ ولو لمرة واحدة. كانت جليلة تأخذ يد أخيها فيبتعدان وتقول: "تعال. سيزعل أبي منك ويخاصمك ولن تراه مرة أخرى". لِمَ؟ ما سر هذا الصمت الطويل؟ هو فقط يريد معرفة من يكون؛ فلماذا صمتت أمه عن الكلام زمنًا؟ حتى إنها لم تخبره بوجود جليلة في هذه الحياة، و لم تخبره كيف ماتت؟ فلمَ؟ لِمَ يعشق الموتى الصمت هنا حيث لم يعد للصمت جدوى؟ قالت جليلة: "لن يتحدثا معك فقد خاصماك منذ زمن، وسيخاصماني

أيضًا لأنني أحبّ الكلام معك، وقد قالا: لا تتحدثي مع الغرباء. حتى الشيخ عبد الغني سيخاصمني!، ماذا فعلت حتى يكرهك الجميع؟ رباه! الشيخ عبد الغني، كيف نسيه؟ كاد أن يسألها عن مكان قبره لكنها كانت قد هربت وأطاعت والديها اللذين أمراها بتجنب الغرباء.

بحث كثيرًا عن قبر الشيخ فلم يجده. كان يريد إيجاد الإجابات، لكن الشيخ لم يظهرْ ولو لمرة واحدة. قابل العديد من الموتى الذين يعرفهم، فسألهم عن الشيخ فأجابوا بالحقيقة: "لو أراد الشيخ أن يراك لرآك". سألهم عن الصغير حسين فتركوه وحيدًا وهربوا مسرعين. يعرفون أية خطيئة جاءت بك هنا. قرر العودة إلى الشجرة الهزيلة الصفراء التي التقى عندها بجليلة ووالده. ربما كانت تلك الشجرة هي شجرة المعرفة، أخت الشجرة المباركة التي أكل منها آدم فتعرَّى من كل زيف. لم يجد المسكين عند الشجرة شخصًا أو تفاحة، ظل حائرًا وحيدًا في أرض الموتى، ينصت إلى أغنياتهم الحزينة ويبكي معهم ضياع كل الأشياء التي فقدوها من دون أن يدري ماهيتها.

يغادر عبد النعيم أحيانًا الخط الفاصل بين العالمين دون أن يدري، فيعود إلى القرية، ويسير في شوارعها بملابس مُتربة، وهو لا يرى سوى وجوه الموتى، ويسأل الناس: كيف يقابل الشيخ أو الصغير؟. ويحكي – دون أن يدري– أسرار العالم السفلي. كان الناس يرمقون المسكين بشفقة على هذه النهاية المؤسفة، ما عدا حارث، ظل يشعر بالمقت والرغبة في الانتقام. ماذا يفعل حارث اليوم وقد جن عبد النعيم فصار شخصًا عاديًّا؟ هل يرضى

العمدة إن قتل عبد النعيم كي ينال الغفران؟ بالطبع لا. يدرك حارث عمق الحفرة التي سقط فيها، فيكاد يقترب من الجنون هو أيضًا. يسير ملثمًا متخفيًا في الطرقات حتى الخمارة، لكن الناس يشعرون بوجوده ويشمون رائحة تلك الروح الكريهة، وينتظرون اللحظة التي يخرج فيها من الخمارة حتى ينقضوا على شيخ الخفر القديم، شيخ الظالمين. لم تنس القرية ما حدث عند الخمارة، كيف تنسى ودماؤه لا تزال باقية فوق الجدران؟ عاد الخفر مرة أخرى إلى الشوارع؛ بعدما ذهب الناس وقبّلوا قدم العمدة وقالوا: "الخفر أرحم من المطاريد". وقالوا أيضًا: "لسعة السوط لا تقتل". اعترفت القرية بهزيمتها تماما، لا ضرر من الاعتراف بالهزيمة، خاصة بعد موت الشيخة عالية. كيف ينتصرون وقد انهزمت شيختهم قبلهم في معركتها الأولى ضد الزمن والموت. لكن حارث لم يعترفْ بالهزيمة بعد. يبحث – لا يزال– عن أية حيلة تعيد الزمن إلى الوراء. يسأل ألكسندر الشفاعة فيرفض ويقول: "نو.. هارث همار.. نهيم ضرب هارث". لم ينس بالطبع، لكن هل هذا هو المانع الحقيقي؟ بالطبع لا. كبر العمدة و لم يعد بحاجة إلى الشياطين، صار هو شيطان القرية الأعظم. لطالما وسوس حارث للعمدة بقتل والده، وبعدها وسوس بقتل ليلى. لكن اليوم، هل يملك الشيطان، أي شيطان، سلطانًا على العمدة؟ صار حارث عجوزًا خرفًا، بغير ذي فائدة؛ منذ أدمن الخمر، منذ فضح الأسرار في السّكْر. علاقة العمدة بالمأمور والبكوات والخواجة والإنجليز والمطاريد وتجارة الآثار وسرقة الأراضي؟ هل يأمن العمدة مثل هذا الشخص؟ هل يأمن منْ وسوس وساعده في قتل والده؟ كان حارث يعرف كل هذه الأسباب وغيرها؛ ولأجلها أراد العودة إلى

الدوّار أسفل أقدام العمدة، فهو المكان الوحيد الآمن، كي لا يقتل ليلا أثناء السير في الظلام برصاصة طائشة مجهولة. لم تكن هنالك وسيلة واحدة ناجحة يا حارث. تعرف هذا. يقول لك الشيخ القبَّاح الدمَّام: "اصبر؛ في الصبر الداء أو الشفاء". كيف تصبر؟ أفسد عبد النعيم كل شيء حين جُنّ، وأفسد الأطفال كل شيء أيضًا حين قتلهم مقتل الصغير، فصاروا قططًا أليفة في خمارة ألكسندر. لم يكن هنالك منفذ واحد للهروب من القدر. العقدة قاتلة والأمر حتمي. ربما عليك فقط أن تستسلم للموت في هدوء مثل الجميع.

الجميع استسلموا للموت في هدوء، ما عدا الشيخة عالية، ملأت الدنيا ضجيجًا قبيل موتها، مثلما ملأتَها ضجيجًا في حياتها الطويلة الحافلة. رأتها القرية تجري مذعورة بشعرها الأبيض المنكوش وهي تتعثر في الناس والحجارة الصغيرة. لم يعرفوا سر ذعرها الغريب. لم تكن من عادة الشيخة الخروج عن وقارها بهذا الشكل سوى حين تقوم بطقوس السحر أو الرقص مع العفاريت. طرقتْ ديار القرية بابًا بابًا وهي تجري، لم تنتظرْ أن يفتحَ لها أحد. فتحَ الناس الأبواب مندهشين، كانت الشيخة تطلب أشياء عجيبة وهي تجري ولا تتوقف كي تأخذها، تتابع الهرو ب حتى تسقط أخيرًا في الترعة، عند عيشة، ولا تنهض. عرفت القرية فيما بعد أن ملائكة الموت كانوا يطاردونها؛ فقد حان أجلها. وعرفوا أيضًا أنها كانت تحاول القيام بتعويذة أخيرة لكن الوقت لم يسعفها. وفهمت القرية لم كانت تجلس كثيرًا في أيامها الأخيرة عند الترعة، وتنادي على جدتها عيشة لتنقذها. ما عادت عيشة تزورها كثيرًا في الأيام الأخيرة،

ربما تخاصمتا أو تشاجرتا فتركتها عيشة تحارب قدرها وحدها، وربما حرضتْ عليها ملائكة الموت حتى يأخذوها، وربما أخبرتها في حلم أخير أنهما سيرحلان معًا عن القرية.

مسكينة هي عالية. ظلتْ على عادتها في الكذب حتى وهي عجوز ميتة. حين وصلت إلى الجبانة اجتمع الموتى حولها للتعرف إليها، فقرفصت على الأرض وأخبرتهم بأكاذيب عديدة. لم يعرف عبد النعيم بوجودها في الجبانة سوى حين تعالى سباب الموتى الغاضبين عليها. نهض وسار من الشجرة حتى اقترب منهم، فوجدها تحاول إقناعهم أنها لم تُمتْ، كأن الموت عار، لكن الله أرسلها رقيبة فوق رؤوسهم. لم يصدقها الموتى فهم ليسوا كالأحياء السذج، يستطيعون أن يشموا جيدًا رائحة المقيمين ورائحة الزوَّار العابرين.

غاص عبد النعيم في الزحام حتى وصل إليها؛ فشعرت بالذعر الشديد حين رأت ذلك الحي القادم إليها من وسط الموتى. فكرتْ بالعدْو، بالهرب بعيدًا، بطرْق القبور من أجل القيام بتعويذة أخيرة، لكنها لم تفعل. امرأة عجوز ميتة تثقلها ذكرى النهاية. تعرف هي أن النهايات تتكرر دومًا بعد الموت. لذا سجدت على الأرض وحاولت تقبيل قدمي عبد النعيم، تماما كما فعلت مع ملائكة الموت، وقالتْ أشياء كثيرة وهي تعتذر، مزيج من الخرافات وتعاويذ السحر. لن تسعفها اعتذاراتها. جرى عبد النعيم من قدميها، والموتى يرقصون ويصفقون حولهم في سعادة، وهو يأخذها بعيدًا إلى الشجرة الهزيلة التي يجلس عندها دومًا.

عند الشجرة، صرخت عالية كثيرًا دون أن يفعل عبد النعيم شيئًا. في الحقيقة لم يكن يعرف سر الغضب الشديد الذي اجتاح صدره بمجرد أن رآها، و لم يعرفْ أيضًا سر صرخاتها عندما ربطها في تلك الشجرة. سألها عن السبب فقالت: "أعرف أصل هذه الشجرة، هي شجرة الشياطين، شجرة ملعونة رؤوسها الشياطين، شياطين حولك وحولي. "أبوس يدك سيبني. سيبني". عندما انتهت صرخ عبد النعيم فيها بغضب أكبر: "لن تتوقفي عن الكذب أبدًا، أليس كذلك؟ لم يعظك الموت". وصفعها على خدّيها ثم ضربها بيده ضربًا مبرحًا حتى تعب، وفجأة سقط فرع غليظ قبيح من الشجرة، فأمسك به وعاد يضربها من جديد وهو يلعن كل خرافات القرية فيها.

لماذا لا تتعرَّى القرية من خرافاتها؟ فتجلس عارية أمام الترعة مثلما كانت عيشة تجلس وهي تتأمل صورة عشيقها في المياه، بينما يسافر هو مع الموج في البلدان البعيدة ولا يلبث أن يعود من السفر مشتاقًا إليها كل يوم عند الغروب، فيثرثران كثيرًا في الحكايات التي لن تكتمل، قبل أن تغرق ذات يوم حين اشتهى العاشقان قبلةً.

تعرّف عبد النعيم عليها بمجرد أن رآها، ومن يستطيع أن يجهلها؟ هي فاتنة وشهية كما وصفتها القرية. تجلس دومًا فوق أرض خضراء وحيدة في الجبانة الجدباء، فيأتي إليها الموتى صفًا صفًا من كل صوْب؛ حتى يتأملوا حزنها ويبكوا أمامها، بينما يتبرك بها العشاق حتى يروا أنفسهم في عينيها. اقتر ب عبد النعيم منها وجلس أسفل قدميها الجميلتين. سألها بسذاجة:

"هل أنت حقيقة حقًّا؟". فلم تجبْ. كان يقصدها ويقصد معها خرافة العشق. وضعت يديها فوق عيني عبد النعيم فرأى كل شيء، السموات السبع والملائكة والفردوس البعيد، أرض الترعة الخضراء وعشيقها، حديقة الدوّار الحمراء وليلى. سألها بتوجس عن الأخرى التي تدعى سلمى، فقالتْ: "سفر، بلدان تقع بين أصل الصورة وانعكاس صورتها في الماءِ، قبلة واحدة هي الطريق؛ فاعطش". ثم سألها أيضًا عن علاقتها بعاليةَ، فقالت إنها لا تعرفها ألبتة، وعادت إلى شرودها مرة أخرى، انعكاس صورة حبيبها في الماءِ، قبلة هي الطريق. تركها عبد النعيم وأكمل الرحلة بين الموتى وهو يؤمن أن قديسة الجبانة شرحتْ صدره ورفعت ذكره، فلم يعد يرى سوى ليلى، و لم يعد مؤمنًا بخرافة سوى العشق.

في الأيام الأخيرة شعر عبد النعيم بحركة غريبة للموتى، كانوا مذعورين. يجْرُون في كل مكان ويصطدمون ببعضهم ويتسابقون على دخول مقابرهم، ولا يخرجون منها لأي سبب كان. لم يعودوا يغنون في دوائرهم ممسكين بقلوبهم مثلما كانوا، و لم يعودوا يزورون عيشة في مقامها، حتى عيشة بدا الذعر على وجهها الملائكي للمرة الأولى قبل أن تختبئ في قبرها. لابد أن أمرًا جللًا سيحدث. الوحيدة التي لم تستطع الهرب هي عالية؛ لا تزال مقيدة في جذع الشجرة تتوسل إلى عبد النعيم كي يتركها تختبئ مثل الموتى. لمَ؟ ألست حية خالدة؟ تترجاه كي يتركها تختبئ في قبرها ثم تعود بعد ذلك فيعذبها مثلما شاء. وحين يسألها عن سبب ذعر الموتى لا تجيب، تقول: "إن أجبتك لن تصدقني، وستعذبني أكثر". وحين أعطاها الأمان؛ قالت: "المولد بعد يومين، مولد العمدة،

شيخ الملوك والعارفين، بو هشام، قدس الله سرَّه". صدقت الكذوبة للمرة الأولى؛ لذا فك عبد النعيم قيدها وتركها تعيد تكرار نهايتها. تجري بذعر وهي تنظر للوراء فتتعثر في الأحجار الصغيرة؛ خوفًا من مطاردة عدوها. تطرق القبور طلبًا للمأوى والنجدة فلا ينجدها أحد من قدرها، وتظل هكذا.

سار عبد النعيم بين القبور والأحواش والشواهد يبحث عن بو هشام. كان يتوقع أن يجده مباشرة؛ فالجبانة خالية من الموتى، وبالفعل، رآه هناك جالسًا أمام مقام عظيم ذي قبضة خضراء. يحاول تحطيم المقام بكل ما يملك من قوة. يريد أن يصير ميتًا عاديًّا مثل كل أموات القرية فلا يقدر. يتوقف عبد النعيم وراءه فيشعر بوجوده ويلتفت وتتقابل أعينهما، عينا عبد النعيم الجامدة بعينيْ بو هشام الذليلتين. يقول الأخير: "أخيرًا جئت، كنت أنتظرك كثيرًا، منذ أول يوم لي هنا وأنا أنتظرك، الناس يكرهونني يا نعيم، الأحياء والموتى، لا أحد يريد أن يحكي معي أبدًا. تعال يا نعيم أريد أن أحكي، أريد أن أتطهر عن ذنوبي بالحكي".

بو هشام

أنا العمدة بو هشام، شيخ الملوك والعارفين. يا لها من قرية حمقاء مجنونة. هكذا سمَّتني؛ فزرعت العداوة في قلوب الموتى تجاهي. لم يحدثني أحد منهم على الإطلاق، يمرون بجواري كأنهم لا يروننني فلا يلقون عليَّ السلام، بل اللعنات. يقولون هذا هو صاحب المقام العالي،

والقبة الخضراء. يتساءلون: لماذا لا أريهم المعجزات التي تتحدث عنها القرية أمام أعينهم؟ بيدي المُلك، فلماذا لا أعيدهم مرة أخرى إلى الحياة أو أعيد نفسي؟ وحيدًا يتركونني، فلا يكلمني أحد. كأن لا حياة بعد الموت سوى هذا العدم الموحش.

قتلني ولدي مرتين: في الحياة الأولى مرة، والثانية عندما أقام لي هذا المقام. بعض المقامات صلبان للميت. أنا لم أطلبْ أن يبني لي هذا المقام فلماذا يريد أن يصلبني؟ ولماذا يريد أن يعزلني عن عالمي؟ فلا الأحياء أُحَدثُهُمْ ولا الموتى يرونني. أعرف أنني ظلمت القرية كثيرًا، عن قصد وغير قصد. كثيرًا ما أشفقت على المساكين والفقراء، لكن يا إلهي أنت تعرف. كان شيطاني قويًّا، الشيطان غانية هائجة ماكرة. فلماذا تركتني يا الله؟ لم لمْ تساعدني؟ تركتها تهزمني. تريد الذهب والفضة ولا تبالي بالطين والفضيحة. تجعلك تسعى لمضاجعتها ليلا ونهارًا حتى تقتلك شهوة الامتلاك، يا ربي! لماذا كنتُ عمدة؟ لماذا لم أكن فقيرًا، مسكينًا، أو فلاحًا عاديا مثل كل فلاحين البلد. ربما حينها فقط كنت سأنعم بحياة سعيدة بين الموتى وأتحدث مع الجميع وأحكي لهم ذكريات طفولتي فيحكون لي ذكرياتهم أيضًا وقصص الحب الجميلة. وحدهم هم الموتى يقدرون الحكايات ويعرفون قيمتها.

تتكرر حيواتنا بعد الموت، تتكرر النهايات. ولهذا أخشى أن يموت ولدي قريبًا فيقتلني ثم يقتلني. أنا لا أريد هذا المقام ولا أستحق هذا العذاب يا ربي. كنت أفكر في الأيام كثيرًا، أليس كذلك؟ كنت أناجيك

وأقول: "إلهي إلهي ساعدني". كنت أحاول الابتعاد عن المأمور المرتشي والبكوات الفاسدين. كان الابتعاد صعبًا؛ أقدام الجميع كانت قد غاصت في الوحل. حاولت الهروب من ذلك الخواجة الذي أراد بناء خمارة في قريتنا، قلت: "لو انطبقت السماء على الأرض لن تكون هنا خمارة أو إنجليز في القرية"؛ الأولياء سيحزنون وكذلك الله سيغضب مني. لكن هشام فعلها، أعرف أنني بداية الطريق وهو النهاية. كنت أرى النظرات البغيضة في عين ولدي الصغير وهو يجري في الدوّار ويتعلم ركوب الخيل أو ضرب النار. في كل طلقة تدوي كنت أشعر أن روحي تغادرني، وكنت أسمع وسوسة حارث وهي تهمس في أركان الدوّار المظلم: "اقتل أبيك"، "اقتل أبيك تصبحْ عمدة!". لكنني لم أعرف بالضبط متى ستكون نهايتي، فلماذا يا الله، يا رحيم، يا غفور، تركتني؟ ألم أطلب العون منك؟ طلبت يدك يا إلهي كي تنتشلني من الوحل؟ واعتكفت بالدوّار في الأيام الأخيرة أبحث عنك، طلبت إشارة واحدة وانتظرت رحمتك فأرسلت إليّ ملائكة الموت بدلا من ملائكة الرحمة، فهل هذه هي الإشارة يا مولاي؟ وأين المعنى.. أين؟ أنا العبد الضعيف الحائر. يا ربي، أنا بريء من أفعال ولدي بي وبالقرية وبالموتى. أعرف أن لكل عمدة شيطانه، وأعرف أن شهوتي قد غلبتي، لكنني أحببت ليلى والقرية و لم أُردْ بأحد شرًّا. أما ذلك الولد الطائش، فرحمتك، هو لا يبالي سوى بإرضاء تلك الشيطانة الصغيرة. هو ضعيف، صغير، وهي امرأة هائجة ماكرة وملعونة. تجهل القرية كل ما يحدث بينهما في الفراش وتصدق الأكاذيب التي ينشرها الكروان. يقولون إن صراخ سلمى أيقظ الشهوة في الموتى ليلتها، رحماك

ربي، الموتى كانوا يضحكون يومها، فقد أمرها هشام بالصراخ قبل أن يضاجعها. القرية تصدق هشام حين خرج إليها من الشرفة وهو يلوِّح لهم بالمحرمة الملوثة بالدماء. رقصت الفتيات وزغردت النساء وأطلق الرجال أعيرتهم النارية في السماء، ثم علقوا تلك المحرمة فوق أطراف عصيهم وهم يتبارزون على شرف العروس الجديد، بينما ظل الموتى يضحكون. فهل يعرفون حقًّا ما حدث؟ الموتى فقط يعرفون الحقيقة ويثرثرون بها، لكن لا يسمعهم الأحياء الخرس. يومها سجد هشام عاجزًا أسفل جسدها الفتَّان الكامل، وبكى، نعم بكى كالأطفال. هل تعرف القرية شيئًا عن عجز العمدة والأدوية السحرية التي يأتي بها ألكسندر من بلاده البعيدة؟ هل تعرف عدد وصفات العطار الفاشلة التي يجربها كل يوم. هل يعرفون شيئًا عن الكوابيس التي يراها في المنام؟ يراني عائدًا للانتقام، ويرى حارث وهو يوسوس لسلمى بالزواج من آخر. ويرى ليلى وهي تنجب ولدًا آخر. يبكي كثيرًا هشام أثناء النوم، وحين يستيقظ تلتقي عيناه المنكسرتان بعيني سلمى القويتين؛ فيخرج من الدوّار مسرعا إلى القرية الضعيفة ويشيع في هوائها الأكاذيب حتى يصير مشتهى الصبايا والفتيات الساذجات؛ فلا تشم القرية رائحة سره المفضوح.

أعرف أيها الزائر العابر أن روحك قلقة. تريد معرفة الحقيقة ولهذا أنت هنا ولها. ها أنا أخبرك بالسر القديم. أنا منْ طردتك من الدوّار وحضن أمك ليلى؛ فلا تغضب عليّ ولا تكن أنت والموتى ضدي. أنا التائب إلى ربي الرحيم. كنت أعزم على ترك العمودية قبل ساعات قليلة من الموت. أنا لا أريد ذلك المقام اللعين؛ فخلصني من خطيئتي واكسر عزلتي عن

الناس. تلك العزلة التي بنيتها في الحياة الأولى ثم تبرأت منها قبيل النهاية، ليست هذه هي النهاية التي اخترتها. قرب إليّ نهاياتي فقد اشتقت إليّ. وسرْ إلى نهاية رحلتلك حيث تلتقي بشهيد النخلة فيطهِّر روحَك من خطيئتك.

***

أكمل عبد النعيم السير وقد ترك بو هشام في الأرض. لم يعد يحاول تحطيم المقام، ولكن وضع كل الأمنيات الثقيلة فوق ظهر نعيم، تماما مثلما فعل الأطفال من قبل، ومن قبلهم الشيخ عبد الغني وأم نعيم ووالده الذي لم يره. لم ينظرْ عبد النعيم إلى الخلف، وحاول أن يتجاهل صوت سلمى الذي ظل يوسوس: "أريدك أنت يا عبد النعيم. تعال". لم يعرفْ كيف استطاع صوتها أن يدلف إلى الجبانة، مثلما لم يعرف آدم كيف استطاع إبليس الدخول إلى الفردوس.

كانت توسوس بأشياء كثيرة ومخيفة. هل هي الحقيقة؟ لماذا لا تحاول الإنصات إليها؟ لماذا تصدق اعترافات بو هشام الخاطئ عن همسات سلمى؟ هي تخبرك أنها تشتهيك. أنت عشيقها منذ الطفولة ولا تريد أن يضاجعها سواك. مسكينة هي. هل نسيتْ ليلة الترعة؟ هل تصدق حقًّا أن ليلى أدخلتك إلى حمامها؟ لمَ لا تكون محض أوهام الطفولة؟ هل تفعل ليلى الشريفة مثل هذا الفعل العاهر؟ هذا كذب. لم لا تكون الحقيقة هي أن ليلى ضبطتك وأنت تتلصص عليها عارية فطردتك من الدوّار؟ أليس هكذا تبدو الواقعة أصدق؟ تريد تصديق رواية العمدة فقط لأنها على

هواك؛ فلا تدعي أنك تريد الحقيقة. تريد تزييف الحقيقة والذكريات، تريد تزييف كل شيء، اصمتي اصمتي أيتها الشيطانة الرجيمة! لن تفهمي عشق ليلى. كيف يفهم الجميع شيئًا كهذا؟ هم المقيدون بأجسادهم في الطين والعاجزون عن الرؤى والتحليق. وأنت من تكون يا عبد النعيم؟ آه، أنت لا تعرف إجابة هذا السؤال. ابتعد عبد النعيم عن صوتها الوسواس الهزج إلى الصمت البعيد، ربما ما أنت سوى الرحلة إلى الإجابة.. لا، الإجابة نفسها.

توقف عبد النعيم فجأة وقد غاب صوت سلمى وحل مكانها صوت بكاء. كان الجبل على بعد خطوات قليلة، وكان هناك ميت يبكي وهو يرجم الجبل بحجارة صغيرة. "ماذا تفعل؟". التفت الرجل للوراء فرأى نعيم فقال – وهو لا يزال يبكي–: "أريد حقي، "تاري" يا نعيم". ثم جلس على الأرض فجلس عبد النعيم بجواره، وقال: أنا أدري أنك لا تعرفني؛ لأنني ميت والناس ينسون الموتى. لا، ليس كل الموتى. وأنا تمنيت أن تذكر البلدة أكملها اسمي ولا تنساني أبدًا، وتذكر قصائدي التي كتبتها عند الترعة، حيث تقعد أنت. لكن الموت سبقني وهزمني. يا بختك يا نعيم لن يهزمك الموت أبدًا؛ الجميع يحبونك يا صاحبي. سترى هذا حين تأتي إلينا. لكن قبل هذا خذ لي حقي، أنا أخو حسن السعران، أخي قتلني وسرق روحي، اسمعني أبوس إيدك اسمعني!

شهيد النخلة

كم اشتاقت الترعة إليّ! أنا شاعرها الحزين الذي كنت أجلس على ضفافها وأدندن قصائدي الحزينة التي لم يسمعها البشر. وحدها الأسماك واليمام والعصافير كانوا يحبون الإنصات إليَّ. هل تذكر القرية جلستي تلك؟ هل تذكر وجودي فيها من قبل؟ هل تذكر دمائي الحمراء التي سالت في ترعتها. ملعون هو قلب القرية القاسي مثل ذلك الجبل. قرية تجهل ما هو الحب، تحب الغناء لكنها تخشى الخفر، تحب الحياة لكنها تقدس الموت. أنا لم أردْ من القرية شيئًا سوى تلك النخلة التي قتلتني والترعة التي أحببتها. لم أكن أريد من الناس سوى أن يتذكروا قصائدي الحزينة، وأن يشموا نسيم الفجر فيها؛ فقد دفنتها في الهواء قبل رحيلي.

كم اشتاقت النخلة إلي! أنا شاعرها الحزين الذي كنت أجلس أسفلها وأتأمل السماء الجميلة من بين السعف. لم تتخيل النخلة أن العشق قد ينتهي بالعشاق إلى قبورهم، وأنا أيضًا لم أتخيل قط أن مشاجرة سخيفة على ملكية نخلة قد تقتلك. لكنها الحياة على أية حال، سخيفة وقاتلة. كان أبي قد مات قبل تلك المشاجرة ببضعة أيام، وقد ترك لنا، أنا وأخي، دارًا فسيحة ونخلة وحيدة خلف الدار. قسمنا الدار بالعدل نصفين، لكننا تشاجرنا على تلك النخلة بالخارج. كانت أقرب إلى داره من داري لكنني صديقها. هو لم يرها من قبل أصلا؛ فلماذا أرادها بهذا الشكل؟ نخلة لم يرها و لم يأكل من بلحها الحلو، كيف رفع البندقية في وجهي هكذا؟ هل تشجع حين رأى ذعري؟ لقد صدمت وتراجعت للوراء فسقط البلح مني.

وتساءلت: هل ستقتل أخاك الكبير لأجل نخلة؟" فابتسم وأجابني بطلقة في الرأس. لا أعلم لم انتابني هذا الذعر، ربما أدركت بطريقة ما أن هذه هي اللحظة الأخيرة لي في الحياة، ربما تشعر أرواحنا بملائكة الموت قبل أن تراهم. ظننت أن أخي سيتراجع، سيترك البندقية تسقط أرضًا ويسقط أسفل قدمي ويقبلها ويقسم برحمة أبي أنها كانت وسوسة شيطان، لكن أخي لم يتراجع، لم يكن من الممكن أن يفعل وقد قتل ثلاثة قبلي، لا أعرفهم لكنني رأيت وجوههم حين أطلق النار، فالموتى يعرفون الكثير، وقتلى القاتل الواحد إخوة. أطلق أخي الطلق الناري فسكنت تلك النظرة المذعورة عيني للأبد. قصيرة هي الحياة، قصيرة هي لحظة مغادرة الروح للجسد لكنها موجعة. الموت موجع حين تطمع بالخلود.

كم هو مضحك أن تشاهد الحياة من الأسفل، كأي ميت عادي عاجز. ترى القرية تجعل من قاتلك بطلها ومخلصها بدلا من أن تقتص لك. ترى الحقائق تتبدل كأنك لم تكن، وتُنسى أيضًا كأنك لم تكن. تقول هل مت حقًّا؟ أو هل عشت أصلا؟ هل قتلني أخي الصغير لأجل نخلة لا يريدها؟ نعم، لقد حدث كل هذا. الموتى لا يكذبون عليك لكن القرية تفعل. تنسج رداء الخرافات حول جسدها المسن فتصير أقوى قليلا فلا تتعرى ولا تموت. تقول القرية إن حسن السعران هرب من بطش العمدة لنصرة المساكين والفقراء. تقول القرية إن حسن السعران والمطاريد هم أبطالها الغائبون وأملها الوحيد والبعيد. تقول القرية دون أن تتساءل كيف أو لم. وحين تستيقظ فجأة فتجد أكاذيبها كلها قد سقطت وتبدو عورتها، تبحث عن خرافة جديدة تسترها. اليوم تقول: ربما تمرد المطاريد على زعيمهم حسن

السعران، تقول: ربما تنكر الخفر في هيئة المطاريد. لا، بل هم العفاريت، عفاريت العمة صفية، تجسدت العفاريت في المطاريد للانتقام من العمة وقتل ابنها الصغير. "تار" قديم وليس لنا شأن، والحق، الحق مع العفاريت. قتلتْ ولدهم فقتلوا ولدها، وهذا هو القصاص العادل.

لا تريد القرية معرفة شيء عن حسن السعران؛ لذا تصدق الخرافات دون تفكير. هو أخي وقاتلي، وأنا القتيل الرابع. أعرف قصص القتلى الأوائل الذين سبقوني، والذين قتلهم كأنهم حيوانات لا جدوى منها. أعرف تلك اللذة الغريبة التي اكتشفها في القتل، موهبة قبض الأرواح قبل ميعادها. يستشعر بالألوهية. أن تفعل ما تريد دون أن يحاسبك أحد، ثم تخلق الخرافات حولك فيصدقها البشر. وتجلس فوق العرش، عرش الجبل، حولك المطاريد يحمونك ويحملونك ويسبِّحون بحمدك. كأنك عمدة، كل عمدة هو حسن السعران. لكن هذه النظرة الجمالية للقتل لم يكن يراها قبل أن يسرق روحي، روح الشاعر. صار حسن السعران يرى الجمال في كل شيء، في القتل والجبل، والعزلة عن الناس، حتى تلك الأحجار الأثرية والمومياوات التي يجدونها في كهوف الجبل ويبيعونها للعمدة أو لألكسندر، كان يمقتها السعران في البداية قبل أن يدرك جمالها، تلك الحجارة العظيمة التي نجحت في الارتقاء عن بقية حجارة الجبل والمومياوات الخالدة التي علت بقيمتها فوق البشر الفانين.

الموتى يصيرون ترابًا بعد موتهم لأنهم مخلوقات من طين. يهيل الناس عليهم التراب ويرجعون إلى ديارهم، لكن في الظلام، عندما يمر القمر فوق

تلك القبور. ماذا يحدث في الجبانة؟ ماذا تثمر الأرض حين يزرعُها البشر بالذين ماتوا دون حق؟ وحدهم الموتى يعرفون الإجابة؛ لذا ينتظرون ولا يملون الانتظار أبدًا. وأنت يا نعيم ماذا تنتظر؟ أنت حيّ. ألم تمل الانتظار بعد؟ تريد الإجابة؟ حسنًا هي بسيطة للغاية، الأرض كانت عطشة لبذرة جديدة حتى تخضر؛ لهذا مات الصغير. فلا تجْلدن نفسك بهذا الأمر بعد اليوم. لا تبك رحيل الذين ماتوا؛ فغدًا تأتي وتجلس معهم ويأنس الموتى بوجودك بيننا.

***

سار عبد النعيم مرة أخرى بين القبور وقد ترك وراءه الشاعر المسكين يرجم الجبل بالحجارة واللعنات، ثم توقف بالقرب من الشجرة الأولى التي قابلها. وجدها قد تغيرت عما كانت، اخضرَّ لونها وعادت إليها نضارتها واستعادت أوراقها الكثيرة. وفوجئ بوجود جليلة ذات الضفيرة تنتظره وتقول ضاحكة: "وحشتني يا نعيم". وشدته من يده كعادتها وراءها وهي تقول: "تعال. سأريك أشياء جميلة حقًّا". ولم تأخذه بعيدًا ولكن وراء تلك الشجرة، فرأى هذين القبرين المتجاورين، قبر حسين وقبر الشيخ عبد الغني. هل كانا بهذا القرب من قبل حقًّا؟ اقترب عبد النعيم من القبرين فوجدهما جالسين وراء الشاهديْن يرتلان القرآن معًا. فرحَ نعيم بشدة حين رأى حسين وناداه، فنهض مبتسمًا وهو يستأذن الشيخ، واقترب من نعيم الذي مد يده لكن الصغير لم يره، وإنما جرى مع جليلة وراء الفراشات الصغيرة الجميلة التي لا يراها سواهما. جلس نعيم أمام الشيخ خزيان، لكن

الشيخ لم يتوقفْ عن ترتيل القرآن، وكذلك نعيم لم يتوقفْ عن البكاء. لم يكن يعرف ماذا يبكي بالضبط. لم يستطع مقاومة تلك الرغبة بالبكاءِ هنا والندم والتوبة. سقطت دموع نعيم فوق مصحف الشيخ وغاصت في حروف القرآن الكريم، وظل الشيخ يقرأ الحروف المبللة بالدمع وهو يقاوم رغبة خفية في البكاء، لم يلبثْ أن استسلم إليها بدوره. نظر الشيخ إلى نعيم فلم ير أحدًا، ليس مقدرًا لهما أن يلتقيا بشكل تام. فهم نعيم هذا؛ لذا نهض مودعًا الشيخ وسمع وراءه صوتًا يقول: "غدًا يا ولدي سيراك ويسامحك، غدًا". التفت فوجده والده العجوز المستند على عكاز أو ربما عصاة الغنم.

سار نعيم معهم في هذا الطريق المظلم، في الأمام سار والده مستندًا على عكازه، ووراءه سارت أم نعيم وفي ذيلها سار هو ممسكًا بطرف جلبابها الأسود، وظل يجاهد للحاق بخطواتها السريعة، ويحاول ألا يتعثر في الحصى والحجارة الصغيرة. كان الطريق مظلمًا للغاية سوى من نقطة نور بعيدة في الأمام، وكان يوجد الكثير من الأشجار على جانبي الطريق، تارة تبدو جميلة وتارة أخرى تبدو ميتة تعسة. وكان يرى بعض الأعين البارقة في الظلام، أعينًا واسعة كأعين البوم. ويسمع زئيرها فيتعرف عليها، هم ملائكة الموت، يجاهدون كي لا يخرج من الجبانة ويظل معهم للأبد، يمدّون أيديهم من بين الأشجار، أيديهم طويلة ذات مخالب لكنها لا تستطيع الوصول إليه. التفتت أم نعيم وقالت: "لا تخف، لأن نهايتك لم تأت. فاخترها". نظر إلى ملائكة الموت فوجدها مخيفة، فظل يحمد الله كثيرًا. ونظر في الأمام فوجد والده قد اختفى، نظر إلى أم نعيم فوجدها

تقول مرة أخرى: "لا تخف. لأن نهايتك لم تأت. فاخترها"، لكن وجهها بدأ يتلاشى فجأة في الظلام. صرخ "أبي.. أمي". لكن لم يجبْ أحد؛ لذا انطلق يعدو نحو نقطة النور وحيدًا وهو يردد: "جليلة.. حسن". كان يردد أسماء الموتى بغير وعي: "شيخي.. عيشة". كأنما يودع الموتى الذين قابلهم قبل أن تطرده الأرض من رحمها إلى الحياة مرة أخرى، قبل أن يصل إلى نقطة النور الصغيرة، تلك النقطة التي اتسعت حتى ذاب الظلام فيها والموتى والأشجارة وملائكة الموت والعالم.. العالم محض نقطة نور صغيرة.

الطريقة

القسم الثاني

5
الطريق

لبيك لبيك يا سرِّي ونجواي.. لبيك لبيك يا قصدي ومعناي

علتْ أنفاس العفاريت وهمساتهم الآتية من الفناء. همسات وهمهمات بلغة غريبة تنطق بها أفواه زرقاء وأعين جاحظة كأعين السمك الميت، صدورهم لا تحتوي على عظمة واحدة. ولكن محض فراغ. وقلوبهم معلقة بالأوردة الحمراء الضعيفة تكاد تنخلع مع كل نبضة. انتفض نصر الدين فزعًا فوق السرير، وظل لوهلة منتصبًا هكذا، يراقب ظلام الغرفة المطبق الذي يتخذ بعض صورهم. ترى هل سيراهم اليوم ويحدثهم؟ ترك الخف أسفل السرير ونزل الدرج حافيًا مترنحًا مشدودًا وراء همساتهم، حتى وقف أمام البئر في الركن المظلم المنزوي

المقابل لحجرة الفرن. كانت البئر مسدودة بعارض خشبي. قالت الدادة: "البئر كانت مفتوحة زمان لكنهم أغلقوها بعدما دخلت المواسير إلى البيت"، وقالت متوعدة: "أنت شقي، لو لعبت مرة أخرى بجوار البئر ستلهو العفاريت بك". واليوم، الدادة نائمة في حجرة الفرن ووالده الحاج أحمد نائم في الطابق الأعلى، وها هو البئر وهو لم يعد صغيرًا. العفاريت لا تزال تهمس، تهمهم، تستغيث، بماذا تهمس يا ترى؟ لم يكن نصر الدين مدركًا لما يفعل، كانت بقايا النوم لا تزال عالقة في أهدابه السوداء الطويلة. أزاح العارض الخشبي الثقيل فأصر بصوت مزعج، واقترب لإلقاء نظرة في ظلام البئر العميق. ظلا دامس، صمت، رائحة عطنة. اختفت أصوات العفاريت فجأة، وفجأة أيضًا امتدت يد خارج البئر فانتفض نصر الدين وعاد إلى الوراء فزعًا، وعادت همسات العفاريت تعلو مرة أخرى، لكن بصوت أكبر. إنها تصرخ، تصيح، وتتشاجر. كانت أياديهم تتصارع على الخروج من البئر، سيقتلون بعضهم. جرى نصر الدين وأغلق البئر مرة أخرى بالعارض الخشبي الثقيل، لا تغلق البئر، لا تغلق البئر، هل فعل؟ ربما، تداخلت أضغاث الأحلام ودنست الحقيقة.

قبيل الفجر، استيقظت الدادة من أجل القيام بمهامها المعتادة في حجرة الفرن بنشاط وضجيج. تعالى صياح الديكة وامتزج تسبيحهم بأذان الفجر القادم من الحسين والأزهر، والمؤيَّد وبعض المساجد الأخرى المتناثرة. واستعد الحاج للنزول وأداء الفرض وقد ارتدى الجبَّة والقفطان، أما الدادة فكانت تدق العجين في الحجرة بمساعدة ابنتها الجميلة وردة. كانت وردة

فتاة صغيرة سمراء، وجهها مستدير، ولها غمازتان وعينان خضراوان ساحرتان. وجدتْها الدادة رضيعة هزيلة في زقاق ضيق مظلم بالقرب من الحسين، فأخذتها للبيت وتبنتها. خرجتْ وردة من حجرة الفرن ووقفت ممسكة بالقنديل في انتظار نزول سيدها، لكنها جرت فجأة نحو البئر عندما وجدت سيدها الصغير ملقًى هناك، وألقت طرحتها السوداء فوق جسده، وعادت مرة أخرى أمام الدرج تقف بشعرها البني الناعم، ممسكة بالقنديل حتى نزل سيدها وغادر من دون النظر إليها. تنهدت وعادت مرة أخرى إلى سيدها الصغير وهزت جسده برفق وهي تهمس: "سيدي، اصحَ يا سيدي"، فاستيقظ نصر الدين كسلانًا على عينيها الخضراوين الجميلتين؛ فشعر بالنعاس أكثر، عيناها حقول شاسعة على امتداد البصر. ماذا لو عاش فيها للأبد؟ ابتعد بنظره عنها فانتفض حين رأى المكان، كيف جاء هنا؟ كيف جرؤ على النوم بالقرب من بئر العفاريت؟ ماذا لو علم والده أو الدادة بالأمر؟ اقتربت وردة وقالت: "لا تخف. اطلع غرفتك وأنا سأقف أمام بصر أمي فلا تراك، لا تخف، لا تخف". شعر بالنعاس مرة أخرى والاطمئنان. لماذا لا يعيش في عينيها للأبد؟

استيقظت الشمس نشطة وغاضبة دون سبب كالمعتاد، لكنها عجزت عن نفث نيرانها من سقوف مظلات الخيش التي تعلو فوق الحوانيت في شارع العطارين بالغورية. الجو رطب أسمر ساحر وينبض بالعطر والعطارة وجمال الشرق الآسر، ومزدحم بأصوات الباعة والعابرين. الحوانيت تقف على جانبي الطريق، والجوالق مرصوصة فوق الأرائك والرفوف وممتلئة بالقرنفل والنعناع والحبهان والشطة الحمراء والفلفل الأسود، وهناك

قوارير الورد أيضًا والعطر وأجود أنواع الكحل العربي، وشموع متدلية من سقوف الحوانيت كشمس صغيرة. كان نصر الدين يسير بصحبة يحيى – صديق الطفولة– الذي بدا شاردًا وهو يتأمل الحوانيت كأنه يكتشف سحرها للمرة الأولى. تساءل نصر الدين: "ما بك، كأنك وقعت مثلي في الحب؟"، فاستيقظ يحيى من شروده وقال ضاحكًا: "لقد وقعت فعلا، لكنّ للحب ألوانًا لا عدّ لها". سكت الاثنان فجأة عن الحديث لقراءة الفاتحة في سرهما وهم يعبران بوابة المتولي. للبوابة ممر مسقوف بقبة جميلة – لم يتبق من زخارفها الكثير– وبرجان مستديران شامخان ينتهيان بمئذنتين جميلتين.

يا صاح لو أبصرت باب زويلة
لعلمت قدر محله بنيانا
لو أن فرعونا رآه لم يرد
صرحا ولا أوصى به هامانا

لمن يقرأ الناس الفاتحة وهم يعبرون بوابة المتولي؟ سؤال غريب، يقرأونها لشيخهم متولي بالطبع، الذي يسكن المصراع الشرقي للباب ويقضي للناس حوائجهم. يكتبون العرائض والشكاوي ويدسون أوراقها بين خشب الباب فيستجيب الله والسلطان. للشيخ كرامات عديدة مدهشة يعرفها الجميع. قال الحجاج ذات مرة إن الشيخ كان يطوف معهم حول الكعبة بينما أقسم الفقراء والمرضى أن الشيخ كان يجلس معهم في القاهرة لحظتها،

كرامات مدهشة! لماذا لا يكون الناس يقرأون الفاتحة لمتولي آخر؟ متولي الحسبة مثلا. الرجل الذي كان يقف دومًا أمام بوابة زويلة أيام المماليك ويجبي الضرائب القاسية من الفقراءِ والمساكين والمرضى؟ لم يقدس الناس جلاديهم دومًا؟ وجباة الضرائب، واللصوص؟ لعلهم يقرأون الفاتحة لسلطانهم طومان باي الذي جره العثمانيون إلى المشنقة بعدما قاومهم كثيرا، قبلها قاومهم السلطان الغوري أيضًا لكن انهزم وقتل في مرج دابق؛ فولّ المماليك أميرهم طومان باي سلطانًا للبلاد، وبعدما ولَّوْه.. خانوه. المماليك العبيد الخائنون المرتشون الخاذلون رفضوا أن يخرجوا مع سلطانهم لقتال العثمانيين خارج أبواب القاهرة؛ فقرر السلطان الاتكال على الشعب وليس على العبيد. قاوم السلطان والشعب معًا في الريدانية ووردان والصليبة حتى الهزيمة، أمْر الله. وهناك أسفل بوابة زويلة وقف السلطان طوماي في المشنقة حرًّا وشامخًا وقال للشعب: "خلدوا ذكراي بقراءة الفاتحة"، فأطاع الشعب الأمر، وداوموا على قراءة الفاتحة، لكنهم نسوا أن يذكروه.

شعر نصر الدين بالخوف عندما استنشق رائحة الدم المعتق القادم من الماضي القديم. وقال بجزع: "أخشى أن يعلقوا سعد على زويلة"، لكن يحيى بدا هادئًا وهو يقول بإيمان: "الشعب في ظهر سعد لن يقدروا". كانا يتحدثان عن ذلك الأزهري الذي تعلم على يد الأفغاني ومحمد عبده، وبعدها مارس العمل السياسي حتى وصل إلى منصب وكيل الجمعية التأسيسية، وبعدها فاجأ الناس بتلك الخطوة العظيمة، قام بتشكيل وفد يضم علي شعراوي وعبد العزيز بك فهمي، وآخرين. وقابلوا وينجن–

المندوب السامي البريطاني– وطلبوا السفر إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح من أجل الحصول على استقلال مصر. الجلاء كما قال مصطفى باشا كامل من قبل. لم يصدق الناس في البداية، هل يعقل أن يقوم بمثل هذه الخطوة رجل من خارج الحزب الوطني؟ رجل محسوب ضمن أذناب الإنجليز؟ لكن من يقوم بمثلها لابد أن يكون عظيمًا وإن لم يكن من رجال محمد فريد. هل يعقل أن تحصل مصر على استقلالها؟ هل يعقل حقًّا أن يترك الإنجليز مصر بعد فوزهم على الألمان والخلافة؟ يقول سعد أن ذلك ممكن، كيف؟ تغير العالم بعد الحرب، صار يؤمن بأن من حق كل أمة تقرير مصيرها، والضامن؟ وعود الرئيس الأمريكي. لماذا يتغير العالم متآخر دومًا؟ لماذا يجب أن يموت الشباب والرجال، وتترمل النساء والفتيات ويتيتم الأطفال أو يموتون، وتسقط البيوت وتشتعل الحرائق حتى يدرك العالم قيمة السلام؟ ما هذا العالم القاسي الغبي الأحمق المجنون؟ لماذا لا يتغير العالم سوى بالدم؟

في المقهى القريبة من بوابة زويلة جلسا، خلعا طربوشهما ووضعاه على مقعد ثالث. طلبا فنجاني قهوة ونرجيلة لنصر الدين ثم سكتا مرة أخرى عن الكلام. لم يلعبا الدومينو –على غير عادتهما– بينما ثرثر المقهى في السياسة والحب. كان رواد المقهى يشربون: الشاي، القهوة، القرفة. يدخنون التبغ والنرجيلة، ويلقون النكات عن المتزوجين والعزاب على السواء، ثم يتحدثون قليلا عن التوكيلات التي جمعها سعد باشا، وهم ينفثون الدخان كي يخفوا أحلامهم الكثيرة العالقة في الهواء الحر. أما نصر الدين ويحيى فقد ظلا صامتين، كلاهما يخفي سرًّا صغيرًا عن

الآخر. كان نصر الدين شاردًا كالمعتاد في الجميلة وردة، ذات العينين الخضراوين، لم يستنشق رائحة الهواء النقي كلما تذكرها؟ يختفي دخان النرجيلة وتتسع رئتاه للحياة. وردة هي الوحيدة التي يستأمنها على أسراره في البيت. أخبرها بأمر تلك الجمعية السرية التي انضم إليها والمنشورات التي يوزعها في الميادين، وأخبرها أيضًا بأمر هؤلاء العفاريت الذين يسمع همساتهم وهمهماتهم، وحكى لها كل الأشياء التي رآها في البئر. لم يكن يعرف الحقيقي أو الخيالي منها. هي أيضًا لم تكن تعرف. تقول: "لا أفهم في هذه الأمور يا سيدي"، لكنها كانت تعرف وتفهم؛ ضبطها مرة نائمة في الظلام عند البئر تسرح شعرها البني الناعم، وهي تهمس للعفاريت بعينين حالمتين: "لا تخافوا، غدًا سيدي يصدق وينقذكم. لا تخافوا؛ قلب سيدي كبير ويسع الدنيا كلها". وعندما سألها عن هذا أنكرت. قالت: "ربما رأيتني في الحلم يا سيدي"، كل شيء ممكن. هل يخبر يحيى بأمر هؤلاء العفاريت؟ بالطبع لا. سيقول: جن طالب الحقوق الواعد. هل يخبره بأمر وردة؟ يا للفضيحة! سيقول: طالب الحقوق المسكين قد عشق خادمتهم، لن يوافق الحاج أحمد أبدًا، مستحيل، سيطردك ويطردها، فتلتقيا معًا في الخلاء الواسع. ربما لن يقول يحيى شيئًا، وسيظل صامتًا، شاردًا، هائمًا. هو أيضًا يخفي شيئًا، يرتدي بنطالا قصيرًا وبذلة بالية، وجوربًا متدليًا وطربوشًا متسخًا. فما الذي غير حال الشاب الأنيق؟ أهو الحب؟ أم غيَّرته الحرب مثلما تغير العالم فجأة؟ سأله نصر الدين عن سره وتوقع أن يتهرب من السؤال، لكن يحيى لم يكذبْ. نظر إلى السماء بعينين ممتلئة بالدموع وأجهش بالبكاءِ فجأة، وقال:

سلبتْ لِيْلى[1] مني العقْل، قُلْتُ يا ليْلى[1] ارْحَمي القتْلى
حُبُها مكْنُونْ، في الحَشا مخْزونْ أيُّها المفْتُونْ، قم بنا ذُلا
إنّني هائم ولها خادم أيُّها اللائم، خلني مهْلا
لزمْتُ الأعْتابْ وطرقْتُ البابْ قُلتُ للبوابْ، هل ترى[1] وصلا؟
قال لي يا صاحْ مهْرُها الأرْواحْ كمْ مُحب راحْ يعْشق القتْلا
أيُّها العاشقْ إنْ تكُنْ صادقْ للسوى[1] فارقْ تغْتنمْ وصْلا

على عتبات مسجد الحسين يجلس العشرات من الفقراء والمساكين. يستند بعضهم على جدران المسجد وينام بعضهم– العجائز والأطفال خاصة– على الرصيف. تضع العجائز أحذيتهن البالية أسفل رؤوسهن ويغبن بعيدًا عن هذا العالم القاسي. عشرات الأيادي تمتد للزائرين تتسوَّل لقمة عيش صغيرة يقتسمونها بينهم. أيادٍ متسخة وأعين جائعة. يقف بعض الفتية وفي أعناقهم سلات مصنوعة من القش ممتلئة بالعيش، يتاجرون بجوع الفقراء لمن أراد التصدق، بئس البيع!. داخل المسجد توجد مئات الأيادي أيضًا، لكنها تمتد لمقام الحسين. وهناك منبر خشبي متقن الصنع منقوش باللازورد ومطعم بالذهب، منقو من جامع أزبك بك. بالأعلى يوجد ثلاثون شباكًا من النحاس المطلي بالذهب، ومن الجهة البحرية توجد شبابيك أخرى صغيرة دوائرها من الرخام. فوق، قريبا من المنبر مكتوب: "الشفاء في تربته والإجابة تحت قبته والأئمة من ذريته"، مدد.. مدد. وفي لوحة أخرى رخامية فوق باب مكتوب: "الحسن والحسين مني". لكنهم قتلوه يا رسول الله فما أحزنك على الحسين! قتلوا سيد شهداء الجنة،

أربعة آلاف فارس من جيش ابن زياد أمام اثنين وسبعين ثائرًا من أنصار الحسين. المكان كربلاء والزمان كربلاء، والفرات ملح حزين، والحسين عطش للماءِ وللحرية، لكن جيش ابن زياد لا يبالي بعطش الحسين، يريد العبودية للناس أجمعين. "اقتلوه اقتلوه"؛ فقتلوه بسيوفهم واستباحوا دم الرسول. قطعوا رقبة الحسين فتدحرجت في البلاد حتى القاهرة. وهنا استراح الحسين الشهيد الثائر. هل يستريح الحسين حقًّا والقاهرة مقهورة أسفل أقدام الإنجليز؟ آه يا حسين. قتلوك.. قتلوك. قتلوا الحسين يا رسول الله فما أوجعك!

عندما خرجا بعد صلاة الجمعة من الحسين ووقفا خارج المسجد يرتديان أحذيتهما، كان يحيى لا يزال شاردًا في الوجوه الكثيرة العابرة. فتساءل نصر الدين: "عمن تبحث؟" فأجاب يحيى بسعادة: "سأعرفك على شيخ مبروك، غيرني وبدَّل حالي". ضحك نصر الدين كثيرًا وقال في سره: "شيخ مبروك وعفاريت البئر، يبدو أن أعراض المرض واحدة"، ثم قال: "أنا لا أومن بمثل هذه الخرافات". كم أنت كاذب يا نصر الدين! وماذا عن العفاريت التي تتبع همساتها في الليل؟ وماذا عن البئر؟ قال يحيى: "استغفر ربك يا نصر، ده ولي. تعال لن تخسر شيئًا، صدقني"، وشده من يده وجريا في الزحام. الشيوخ كثيرون والوجوه أيضًا. شيوخ أزهر، ومجاذيب ودجالون، وزهاد، لكن مجاذيب الحسين هم الأكثر. أيهم شيخك الدجال يا يحيى؟. كان يجريان بغير هدى، كغريبين تائهين في الحسين، لكن نصر الدين كان متيقنًا من الوصول. وفجأة توقف وراء ظهر شيخ أزهري نحيل، وقبل أن ينطق يحيى بكلمة التفت الشيخ وقال

بابتسامة واسعة: "كيف حالك يا ابن عم المسيح؟"، فابتسم يحيى سعيدًا بما سمع وقال: "لله الحمد يا شيخي"، تهللت أسارير الشيخ حين رأى نصر الدين وقال: "أجبهم يا بني، سيظلون ينادونك حتى تجبهم". انتفض نصر الدين فزعًا حين سمع ذلك وقال: "عما تتحدث بالضبط؟ أنا لا أعرف ماذا تقول"، لكن الشيخ ابتسم و لم يجب، ونظر مرة أخرى إلى يحيى وقال معاتبًا: "ما زلت تحب زينة الحياة يا يحيى؟ ازهد فيها يا ولدي، تتحرر". بدا الشيخ مجنونًا تمامًا في عين نصر الدين، أين هي زينة الحياة في تلك البذلة القبيحة التي يرتديها والطربوش المتسخ؟ ألا يرى هذا الشيخ؟ لكن يحيى قال بأسف: "اعذرني يا شيخي لكن نفسي أمارة بالسوء"، فابتسم الشيخ موافقًا ومودعًا. شعر نصر الدين بالبلاهة وقال: "أنت عبيط يا يحيى؟ أهذا الدجال شيخ مبروك؟"، وكاد أن يقول: "سأضرب شيخك على قفاه"، لكن الشيخ وقف فجأة والتفت إلى نصر الدين بابتسامة واسعة محذرًا. رباه! هذا الشيخ الدجال يقرأ الأفكار حقًّا!

في الطريق إلى البيت سار نصر الدين وحده، وهو يرتعش من شدة الخوف. يرى الألوان المرصوصة في الجوالق تنطق وتسبح باسم الخالق، والحجارة، والحصى، والبنايات، والأشجار. كل شيء يسبح باسم الخالق. يسرع الخطا فيسمع همسات العفاريت تعلو من بئر بيتهم البعيد، وتعلو وتعلو، تخرج من كل بيوت الغورية. يجري نصر الدين في الطرقات لكن العفاريت لا تزال تصرخ وتصيح وتبكي. العفاريت يستغيثون بك. قال شيخ يحيى: "أجبهم يا ولدي"، لماذا اختارته العفاريت من بين كل الناس؟ لماذا لم يختاروا يحيى مثلا؟ أهو عبيط حتى يصدق هذه الأمور؟

الله أعلم. هو لا يريد أن يعرف شيئًا، يريد فقط العودة للبيت. العفاريت لا تزال تصرخ. يريد فقط رؤية وردة الجميلة حتى يقول لها: "دثريني دثريني"، لماذا يخاف الأنبياء من أقدارهم والله عاصمهم؟

وصل نصر الدين إلى البيت أخيرًا. العفاريت لا تزال تصرخ. لم ينظر للبئر. جرى مسرعًا إلى غرفة النوم. ظلال العفاريت فوق الجدران. صعدت وردة وراءه إلى الغرفة وفي يديها الطست والإبريق. تعال يا وردة، أمسك نصر الدين بيديها وأجلسها على السرير، ثم سألها بغضب عما تعرف، قال: "رأيتك من قبل، من هؤلاء؟ أخبريني بكل شيء" فقالت – وهو ينظر إلى عينيها الخضراوين–: "العفاريت يا سيدي هم أنا وأنت وكل المعلقين بين حبلين". لماذا يشعر بالنعاس دومًا كلما نظر إلى عينيها؟ ويشعر أيضًا بالرغبة في تقبيلها؛ ربما ينسى كل تلك الأصوات. اقترب منها فقالت "العفاريت يا سيدي في سجن. بئر أسود عميق". اقتر ب أكثر واستنشق أنفاسها، رائحة الحقول والغيطان، قبلة واحدة هي كل ما يريد، العفاريت تصرخ، هو لا يبالي، قبلة واحدة يا وردة وتتلاشى بعدها العفاريت، ابتسمت، هي تعرف ما يريد، تركت نفسها في يد سيدها الصغير فاحتضنها وقبَّلها، ما أجمل قبلتك يا وردة!. "العفاريت يا سيدي تنتظر مخلصها". لا يصدق. قالت الدادة: "العفاريت قتلت جدك"، لقد رآه بالفعل يترنح فوق الدرج حتى سقط عند البئر. "العفاريت مساكين يا سيدي، مساجين". كيف عرف الشيخ بأمر العفاريت؟ هو دجال آخر أفاق. "قبليني يا وردة، قبليني"، قبلة أخرى كي ينام وبعدها يكتشف الحقيقة وحده غدًا.

في الصباح. استيقظ نصر الدين شاعرًا بألم في الجهة اليسرى من صدره. وقف أمام المرآة عاري الصدر يتأمل ذلك الجرح الجديد، كيف حدث؟ هو لم يصطدم بشيء بالأمس، ربما هي العفاريت، ربما خرج أحد العفاريت من البئر بالأمس وطعنك بمدية أو بظفره. ما هذا العالق أسفل جلده؟ بقايا الظفر المنكسر، لا. هذا برعم أخضر. ما الذي يحدث بالضبط؟ جِدْ وردة واسألها؛ لعلها تخبرك بالحقيقة.

كان الألم يزداد بنصر الدين وهو يبحث عن وردة في كل أركان البيت، لم تكن بالصالة أو بغرفة نوم والده، وليست في حجرة الفرن أو عند البئر، ربما تكون فوق السطح تنشر الغسيل أو تتأمل الطيور المحلقة في السماء؛ تحب هي فعل هذا. الألم يزداد، البرعم يخرج وردة جميلة حمراء. ما هذا الجنون؟ كيف تنبت وردة من الجلد؟ وماذا في ذلك؟ ألم نخلق من الطين؟ نعم ولكن، ممّ ستشرب؟ من الدم... الدم.

لم تكن وردة موجودة فوق السطح أيضًا، لم يكن هناك سوى الشمس التي أحبتها الوردة ففتحتْ لها أوراقها. ألقى نظرة على الطيور التي تحلق في السماء وفكر، هل يجلس هنا قليلا حتى تشرب الوردة ضوءَ الشمس؟ ما هذا الجنون؟ لقد بدأت تفقد عقلك. جرى إلى الأسفل مذعورًا فأغلقت الوردة أوراقها بحزن. سيضطر لسؤال الدادة عن وردة. أحدهم يطرق باب البيت، ربما يكون يحيى، فلينتظر. "دادة.. دادة"، دخل حجرة الفرن وأخفى وردة صدره أسفل يده وسألها عن مكان ابنتها؛ فتعجبت الدادة من السؤال وقالت كلمتها المعتادة: "سلامة عقلك يا ولدي"، وبعدها قالت: "من وردة هذه؟"، لن تتذكر. يتحدث عن وردة أيتها الدادة العجوز،

الرضيعة الضعيفة الهزيلة التي وجدتها في زقاق ضيق مظلم بالقرب من الحسين. هل تذكرت؟ بالطبع تذكرتْ. تلك الوليدة الصغيرة ذات العينين الخضراوين المدهشتين، كانت ستكون طفلة جميلة لكن.. هي لم تأخذها معها إلى البيت؛ رفض الحاج أن تتبني الدادة طفلة لقيطة. تذكري أيتها الدادة العجوز الخرفة. ماذا تقولين؟ أحدهم يطرقُ الباب. ماذا تقولين؟ أين وردة؟ الفتاة التي يحب التحدث معها؟ الفتاة التي يستنشق الهواء النقي كلما ذكرها، لقد قبلها بالأمس. أحدهم يطرق الباب. وما أمر تلك الوردة الحمراء اللعينة. افتح الباب يا نصر الدين. الدنيا تدور "سأترك العفاريت تلعب بك". هل كان يتحدث مع أحد العفاريت طوال الوقت السابق؟ أين وردة؟ "العفاريت يا سيدي هم أنا وأنت وكل المعلقين بين حبلين". أحدهم يطرق الباب. "أجبهم يا بني، سيظلون ينادونك حتى تجبهم". لماذا يخاف الأنبياء من أقدارهم والله عاصمهم؟

عندما فتحَ نصر الدين البا ب قابل شيخ يحيى المبروك. لم يندهش، كان صامتًا متبلدًا، فابتسم الشيخ وهو يتأمل عيني نصر الدين الحزينتين الشاردتين، وقال وهو يشير إلى صدره "أين وردتك الجميلة؟"، لن يندهش. أكمل الشيخ: "لا تخف من الورد يا بني". ظل نصر الدين صامتًا، بحث عن الكلمات، قال: "لا تغضب مني يا شيخ، كنت أهزر، ما كنت لأضربك على قفاك في الحسين حقًّا". فضحك الشيخ كثيرًا ثم قال: "ألم تقل لك وردة من قبل لا تخف، لا تخف يا بني، غدًا يصبح صدرك بستانًا". بدا الغباء على نصر الدين فأكمل الشيخ: "صاحبك مسافر غدًا. وأنت أيضًا ستسافر، فربما تقابل وردة مرة أخرى هناك.. بعيدًا جدًّا.

6
السفر

مالي وللناس كم يلْحونني سفها... ديني لنفسي ودين الناس للناس

ضاعت خارطة القاهرة من عقل نصر الدين فقد كان مشوشًا وغائبًا فوق الجبل عن كل ما يحدث. منذ قليل، أو منذ كثير، كانوا في سوق الجمال بإمبابة لشراءِ الجمال والزاد والماء والخيام. اشترى دليلهم جعفر البدوي سبعة جمال بعدما اختبر قوائمها وعدْوها وشراهتها، كان يستبعد الجمال سيئة الطبع، المدللة والأكولة. وكان يقوم بشيء غريب، يتحدث مع كل جمل على حدة، يتمتم بكلمات غريبة غير مفهومة فيرغو الجمل إما بالإيجاب أو الرفض، كان جعفر يخيرهم بين المجيء في رحلة سفر طويلة مجهولة والبقاء آمنين. والأغرب أن الكثير من الجمال كانت تريد

السفر، وبالذات الجمال العليلة التي لا تقوى على الحركة. بعدها أمر جعفر الحمالين الخمسة، بمن فيهم نصر الدين ويحيى، بشراء زادهم؛ فتحركوا في ظلام السوق وهمهمات الناس. كان الجميع يتحدثون عن قافلتهم، وبالتحديد عن رحّالتهم الملثم الواقف هناك في الظلام.

تنامى إلى مسامعهم أشياء عديدة عن ذلك الرحالة الغامض، أشياء من قبيل: "هو مدان بجريمة قتل ولهذا أحب السفر"، أو: "هو مريض بالجرب ولهذا يتجنب الحديث مع الناس"، أما أغرب ما سمعوه فهو أن رحالتهم "امرأة". كان جعفر قد تعرف إلى الرجال الخمسة قبل شراء الجمال، الجميع أتوا عن طريق الشيوخ، ثلاثة رجال أقوياء جاءوا عن طريق شيخ السيدة زينب، واثنان أفنديان أتيا عن طريق شيخ الحسين. رحب جعفر بهم جميعًا من دون تفريق. كان الثلاثة الأقوياء قد سافروا من قبل، غير أنهم لم ينجحوا في مسعاهم لذا أعادوا الرحلة من جديد، أما نصر الدين ويحيى فقد عرف أنهما طالبا حقوق. سأل يحيى الرجال الثلاثة عن ذلك الرحالة الغريب، أيّ القصص أصدق يا ترى مما يقال؟ لكنهم قالوا بأن الطريق وحده سيجيب على كل ما يريد. أما جعفر فقد أخبرهم بقاعدة السفر الوحيدة، أطع دليلك حتى الوصول. تساءل يحيى عن غايتهم؛ فضحك جعفر وهو يقول: "تسأل عن طريقنا يا زول؟ حسنًا سنزور قبور الأولياء". و لم يكن يكذب.

أشرقت الشمس فوقهم بقرصها الذهبي، وسارت القافلة نحو الجنوب. كانت الشمس تسبح للخالق وهي تشرق، وكان لتسبيحها نغم صوفي

جميل. وكانت القاهرة تغيب تدريجيًّا عنهم، تصغر وتتضاءل، تغوص بناياتها وقلاعها ومساجدها وكنائسها في مربع صغير ثم يتلاشى؛ فيلوح شبح العاصمة من بعيد كمدينة خرافية لم توجد بعد. كانوا يقتربون فوق جمالهم من بداية الأشياء، والشمس تعلو بهم في رحلتها للسماء. يرتدون جلابيب بيضاء وأغطية رأس بيضاء كذلك أو منقطة بالأبيض والأسود، ما عدا رحالتهم، لم يكن يرتدي سوى اللون الأسود.

لم يمض سوى القليل من الوقت حتى عرف يحيى حقيقة الرحالة، أخبره أحد الحمالين أنها امرأة حقًّا. وأخبره آخر بأنها بريطانية، تعاديها السلطات، وأخبره الثالث – بتشاؤم – أن الصحراء لم تخلق للنساء، وأن هذا يجلب لهم القدر السيئ. وعندما أخبر نصر الدين بذلك لم يرد. ظل شاردًا فوق الجمال مثلما هو، ينصت إلى همس الصحراء الصامت. لم يخبر الحمالون يحيى أكثر من ذلك، قالوا بأن الحكاية ملك لجعفر وحده. هو يعرف كل أسرارها، بدايتها ونهايتها، ويحكيها للناس كلما توانت الفرصة، كلما دخلوا مدينة جديدة أو قرية أو استراحوا حول النيران أو في الخيام. يخبرهم جعفر بالأسرار: كيف نادتها القاهرة، وكيف أسلمت واعتنقت الصوفية، و لم ستحاربها بريطانيا العظمى، و لم سيحاول العربي الأسمر اغتيالها، وكيف ستموت صغيرة وجميلة. أسرار لا يعرفها سوى جعفر ولا يمل من حكيها كل رحلة للدراويش الجدد.

استيقظت حواس نصر الدين فجأة عندما بدأت تلك الحقول تلوح من بعيد وتتسع، حقول جميلة وناعمة كأنها بداخل أرواح الرجال، حقول

طماطم وخيار وبطاطس وخس. يوجد الكثير من البقر والحمير في كل حقل، ويوجد مئات الفلاحين الذين يحرثون الأرض بنشاط وهمة؛ فيتساقط العرق من جباههم ويسقي الأرض العطشى. لكن لم يكن هذا هو ما جذ ب حواس نصر الدين، بل كانت تلك الرائحة. كان يشم رائحة وردة بالمكان كأن الحقول تجلّ لعينيها الخضراوين. لم ينس وردة من بداية الرحلة. وكيف يفعل؟ وهي سبب الرحلة وغايتها. كيف غابت وردة فجأة؟ هل سافر حقًّا؟ هل سافرت هي؟ لـمَ لا تكون هذه الرحلة وهمًا أيضًا؟ ما الذي يجعلنا نتحمل عناء السفر والمجهول. يأمل في العثور عليها في النهاية. الحقول في الأمام تحمل رائحتها وأنفاسها، يستنشق الهواء النقي، هي وردة. يراها هناك في الحقول تجري فيبتعد بالجمل عن القافلة. ينادي جعفر "يا ولد.. يا زول. ارجع". لكن نصر الدين لا يسمع شيئًا. هي وردة، ها هي هناك في الحقول؛ يعدو بالجمل أكثر ناحيتها، لماذا تبتعد وردة كلما اقترب منها؟ ولماذا تدور الدنيا والأشجار والحقول؟ الشمس شاحبة زرقاء بالأعلى والسماء لا لون لها. هل يسقط؟ سقط بالفعل من فوق الجمل لكن يدا جعفر التقطتاه بعينين قلقتين. ازداد القلق فيهما أكثر عندما غاب المسكين عن الوعي وهو يهذي بعبير اسمها.

لله أسرار عديدة وغريبة في الكون. أسرار تدفع امرأة بريطانية للقدوم من أجل عشيقها بالمراسلة الجندي بقوات الاحتلال، وبعدها يتقابلان فينفران من بعضهما، وبعدها ترى عين الله في الشرق فتعشق من جديد، تقرأ كليلة ودمنة فتعشق الحيوانات الثائرة، تقرأ ألف ليلة وليلة فتعشق شهرزاد والسندباد. تقرر الترحال في البلاد وزيارة المساجد ومقامات

الأولياء، وتسلم على يد شيخ صوفي، لكنها تتردد قبل دخول الإسلام عندما تعرف أن المسلمين يمقتون شهرزاد؛ يفتنهم جسدها العاري الجميل. وكادت ألا تعتنق الإسلام لأنها كانت تظن بأن عليها أن تكرهها كي تصير مسلمة مثلهم، لكن الشيخ أخبرها بأن لا قيد عليها، وقال: "العري يا بنتي ليس في الأجساد وإنما في القلوب الخالية من محبة الله" وقال أيضًا "بأن الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق كلهم". وبعدها فقط أسلمت، واشترط الشيخ عليها ألا تتبع الناس وألا تتقيد سوى بالحرية. لماذا يغضب الناس من شهرزاد وجسدها الفاتن؟ لماذا لا يفهمون سر الجسد العاري؟ لكن بريطانيا العظمى قد فهمت فعادتْها بكل قوتها، بريطانيا العظمى تعادي امرأة وحيدة في الشرق. فلمَ؟ ما سرك يا شهرزاد؟

كانت رحالتهم إيزابيلا قد ذهبت لزيارة مسجد أثر النبي الموجود في قرية دير الطين، وهناك شمت رائحة النبي الطاهرة وهي ترى آثاره مثل: الوعاء الفخاري والمكحلة والدرفش، ومصحف الإمام علي المخطوط بيده. كانت هذه الأشياء التي تراها ليست موجودة أصلا. سرقها العثماني سليم الأول إلى إسطنبول بعد هزيمة طومان باي، ومع ذلك كانت تراها ولا تعرف شيئًا عن غيابها. وكان جعفر – كالمعتاد، – قد استغل فرصة غيابها وجلس حول الرجال في الحقل– والحمالون جالسون على شكل دائرة– يخبرهم عن شهرزاد والسياف "مسرور" الذي يريد تمزيق جسدها. أما نصر الدين فلم يكن معهم، كان جالسًا هناك أسفل شجرة عيبًّا وشاردًا في الحقول والعصافير: السماء زرقاء عميقة كأنها بحر والسحاب زبد. ووردة؟ أين هي؟ رحلتْ يا نصر الدين. لماذا لا تصدق. كيف تنسى؟ لا،

لم ترحل؛ هو يراها، ها هي وردة... تمشي.... تهرول.... تجري.... تحلق.... تحلق..... تحلق في السماءِ مثل الشمس.

عادت إيزابيلا بصحبة شيخ هزيل نحيل يرتدي عمة رثة وجلبابا قذرة. كان الشيخ يسير أمامها متعكزًا على عصا خشبية هشة وهو يرتل: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، ويضحك كطفل صغير وهو يقول: "صدق الله مولاي العظيم"، ثم يسقط فجأة على الأرض دون سبب وينهض وحده وهو يضحك ببراءة أكثر. نهض الحمالون وجعفر وتقدموا ناحية إيزابيلا التي كانت قد خلعت لثامها فبدا شعرها الأشقر وعيناها الزرقاوان الجميلتان. نظروا إليها بعينين دهشتين فأجابتهم بنظرة طفولية من عينيها. قابلها الشيخ في مسجد أثر النبي، طلب منها بعض النقود فأعطته بعضها. وبعدها طلب المزيد فالمزيد حتى أخذ كل ما لديها، ومع ذلك ظل يطلب. فقالت: "اتبعني"؛ فسار وراءها وهو يردد: "مسكين قارون"، وبعدها قرأ ما قرأ من القرآن. لم تتحدث إيزابيلا حين أمرهم الشيخ جميعًا أن يعطوه كل ما يملكون من مال، كان يأمرهم بعصبية وكانوا يستجيبون كأن للشيخ عليهم سلطانًا. أخذ منهم كل شيء، المال، والزاد، ولم يترك سوى زاد نصر الدين وقال حين رآه: "مسكين مريض"، ثم أمرهم بعدها بالرحيل: "ارحلوا ارحلوا، الخير كثير في الطريق". وكادت القافلة أن تتحرك لولا أن الشيخ أوقفها فجأة وقال لإيزابيلا – التي وضعت لثامها فوق وجهها – مرة أخرى: "بلغوا مني السلام، أنا العبد الفقير لابن مارية القبطية، وقولوا: هنيئًا لك الشهادة يا شيخ". أومأت إيزابيلا برأسها، وكادت القافلة أن تتحرك لولا

أن الشيخ صاح وأوقفها مرة أخرى وقال ليحيى: "تطهَّر يا ولدي بالزهد مما تأخر من ذنبك". وأخيرًا، صاحَ جعفر في الجمال فتحركت القافلة؛ فجلس الشيخ في الحقل وحيدًا وهو يراقب القافلة وهي تبتعد، ثم قال – وهو ينظر للسماء –: "حسنًا سأفعل". وبعدها نادى على الفقراءِ والجياع والفلاحين بصوت ضعيف مبحوح لا يُسمَع، فلبى الجميع النداءَ وانسلوا أفواجًا من الحقول والطرقات.

اختفت الحقول تماما، لم يعد هنالك سوى صحراء تمتد حتى الأفق. السماء مدفونة أسفل الرمال، والشمس متربة. يوجد القليل من الصبار هنا وهناك والكثير من الكثبان الرملية التي ألقتها الرياح بدقة متناهية، كل شيء في الصحراءِ كامل، كل التفاصيل صغيرة ودقيقة كحبات الرمال الصغيرة الذهبية. الصحراء لا ينقصها أو يحدها شيء، أرض واحدة قديمة وأزلية وممتدة حتى الأفق، لا يحدها سماء ولا غاية، كأن الرحلة لا نهاية لها. الجمال تتقدم بإعياء وجوع إلى الأمام. تهمس، ترغو، تصيح، تستغيث بصاحبها، لكن جعفر يجيبها بحزن: "الصبر يا بنيَّتي، خيرتك منذ البداية؛ الصبر". والرجال لم يكونوا أفضل حالا منها، كانوا جياعًا، وجوهم شاحبة بلا دماء ومتربة بعناء السفر، وأجسادهم بدت كأنها تلتصق بروح الصحراء. أما نصر الدين فَلم يكن أفضل حالا من الجميع، كان متوَّهًا وكانت الصحراء تليق بشروده.

تمنى الرجال أن تلوح بحيرة من بعيد أو بئر. لا، لن تلوحَ. كان جعفر يدرك ذلك وإيزابيلا التي فقدت خرائطها، أما بوصلتها فكانت تشير

إليهم. لا يدرك جعفر كيف تاهوا في الصحراءِ فجأة، وهو الدليل الخبير الذي يعرف عدد رمال الصحراء وطرق القوافلِ والعيون. لا توجد بئر هنا أو بحيرة. ومن يدري؟ ربما لم يعبر بشري هنا من قبل، وربما يسقطون في فخاخ الرمال المتحركة فتلتهمهم الصحراء الجائعة للأبد. لم يكن أمامهم سوى المضي للأمام على أية حال، فقد تساوت الجهات الأربع. والأفضل – لمن ارتضى السفر– ألا يعود إلى الوراءِ، لكن العطش والجوع قد ازدادا بالرجال حتى بدأوا يهلْوسون. لم ينظروا مع هذا نحو زاد نصر الدين؛ كانوا بحكم تجربة سابقة يعرفون عاقبة النظر إلى ما لست تملك. لكنهم شعروا في أعماقهم أن سبب ضياعهم في تلك الصحراء هو تلك الرحالة، امرأة تقود قافلة في الصحراءِ؛ فيا للشؤم!. أما يحيى فقد هلوس كثيرًا، كان يرى نصر الدين مقتولا ويرى الخنجر في يده.

دعا الرجال الرحمن الرحيم أن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، وفجأة ظهر أمام قافلتهم قطيع غزلان يجري شاردًا في الصحراءِ. هلل الرجال، وأناخوا جمالهم، وطاردوها لكنها كانت سريعة للغاية فسقط الرجال، الواحد تلو الآخر، فوق وجوههم في الرمال الساخنة. لم يمسكوا بغزال واحد فقط، فما أسوأهم! حتى الغزلان الضعيفة والمريضة والهزيلة والصغيرة والعرجاء تركوها تهرب بعيدًا عنهم. وعندما تحركت القافلة مرة أخرى لم يعرف الرجال إن كان ذلك القطيع قد مر بالفعل من أمامهم وهرب بعيدًا أم أن ذلك محض حلم أو خاطر أو رؤيا راودتهم جميعًا فوق الجمال.

الطريق واحد والمشهد لم يتبدل: صحراء وفقط. كأنهم غادروا دائرة الزمان أو ظلوا يدورون فيها للأبد. أو كأن الصحراء قد سجنتهم في جوفها بالفعل. لكن الرجال لم يستطيعوا صبرًا أكثر من ذلك، أكلهم الجوع؛ فذهبوا إلى دليلهم جعفر كي يتوسلوا إليه أن يسمحَ لهم بجرعة ماء واحدة من قربة نصر الدين. يحيى لم يذهبْ معهم، كان شاردًا حائرًا فوق الجمل فيما يحدث. يفكر المسكين، لماذا لا يقتلون نصر الدين ويسرقون زاده فينتهي الأمر؟. الهلاوس على أشدها. هل ذهب الرجال واستأذنوا جعفر أم أنهم لم يتحركوا من فوق جمالهم؟ وجعفر لم يوافق، أليس كذلك؟ فلماذا هللوا إذن وجروْا إلى نصر الدين؟ ماذا؟ هل وافق نصر الدين حقًّا؟ أعطاهم كل ما يريدون فشربوا وأكلوا حتى كاد الشبع أن يقتلهم. ومضت القافلة مرة أخرى في طريقها وظل الرجال يأكلون ويشربون طوال الرحلة من زاد نصر الدين، المدهش هو أن زاد نصر الدين لم ينقص أبدًا.

وأخيرًا لاحَ للقافلة من بعيد بعض البيوت والنخيل والناس، ألقى جعفر نظرة خاطفة على الصحراءِ بالخلف متنهدًا، بينما بدت السعادة على وجوه الرجال وهم يتمتمونَ صلوات الشكر. هل نجوا حقًّا من جوف الصحراء؟ ما هذه القرية التي تقع على طرف لسان الصحراء؟ الناس ماذا يفعلون؟ يتمرغون في الحصى. لقد عرف جعفر القرية على الفور حين رأى ذلك. ولكن يبقى السؤال، كيف عبروا كل هذه المسافة الطويلة إليها؟ هل اكتشفوا طريقًا سحريًّا في الصحراءِ؟ أم كانوا مع الله طوال تلك الصحراء حيث لا زمان ولا مكان؟

القرية تدعى البهنسة بالمنيا. الناس هنا يتمرغون في الحصى المختلط بدم الشهداء، هنا استشهد أكثر من أربعة آلاف من صحابة الرسول والبدريين منهم، عندما أرسل عمرو بن العاص جيشًا لفتح الصعيد. لكن البهنسة المتمردة صمدت وأغلقت أبوابها الحصينة في وجوه المسلمين، وقاومت الحامية الرومانية الشرسة بشدة حتى سالت دماء الآلاف الطاهرة المباركة. واليوم يتبرك بهذه الدماء الطاهرة أبناء المدينة التي قتلتهم!

كان هناك بقايا معبد روماني يبدو كيد مستغيثة أسفل الرمال، لكن الرجال لم يبالوا بالنظر إليها مثلما لم يفكروا بطلب الزاد. وإنما جروا– بعدما أناخوا الجمال– ناحية الرمال وقفزوا مع القافزين فيها وظلوا يتدحرجون فوق الحصى وهم يسبحون الله العظيم. ومن حولهم كان أهل القرية يتمرغون أيضًا وهم يدعون الله أن يرزقهم بالولد أو المال أو الشفاء. وكانت إيزابيلا تتأمل ذلك بعينين مندهشتين، كعادتها كلما رأت ما يدهشها في الشرق، لكنها لم تتوقفْ كثيرًا أمام مجرى الحصى وإنما تحركت ناحية الجامع البعيد بالغرب للتحدث مع مريم البتول والتعرف إلى السبع بنات. أما نصر الدين الشارد فقد كان يجري أمامها وهو يتعثر في الرمال مطاردًا وردة الجميلة، التي تجري بدورها ناحية قبب الشهداء وأضرحة الأولياء والصالحين.

وداخل مسجد سيدي علي الجمام، قاضي القضاة التقيّ الورع، وقفت إيزابيلا، بينما كانت ترى بالأسفل نصر الدين لا يزال يطارد وردة. كان المسجد كبيرًا ويحتوي على واجهة أثرية جميلة وأعمدة كثيرة وأبواب

منقوشة بنقش عربي إسلامي عريق. لم تدخل إيزابيلا المسجد وإنما سارت في فنائه الواسع وهي تقترب من شجرة مريم العذراء، تلك الشجرة التي جلست مريم تحتها مع كلمة الله عيسى؛ فانحنت الشجرة كي تظلهما؛ ومن ساعتها ظلت هكذا حتى اليوم. بجوار الشجرة من الجهة اليمنى يوجد أيضًا بئر مريم. أسفل الشجرة جلست إيزابيلا وبجوارها الحمام حتى جاءت إليها مريم العذراء بابتسامتها الطيبة الوديعة ووجهها الحزين.

لله أسرار عديدة وغريبة في الكون، أسرار دفعت امرأة بيضاء أن تتعرى وتترك جسدها لشمس الشرق السمراء، وحين تحررت عاداها كل بني جلدتها؛ فقط لأنها أحبت الشمس. عادتْها بريطانيا العظمى فقط لأنها وقفت مع الشعوب والأوطان، كان الشرق في عينيها هو شعلة النار الباقية، هنا رأت الله بعينيها الزرقاوين للمرة الأولى، هنا شعرت بالسلام النفسي العميق، و لم يكن لها أن تترك الغرب يطمس جسدها وحضارتها. في البداية تجاهلتها بريطانيا كما يجب أن تفعل أية دول استعمارية، لكن إيزابيلا كتبت في الجرائد والصحف فوصل صوتها إلى العالم بأسره؛ وهنا اختلف الأمر، حاولوا اغتيالها مرة بعد مرة لكن الله كان معها فأنجدها. الوحيد الذي سينجح بالاقتراب منها وطعنها هو رجل عربي أسمر. سيقابلها في أسوان، وسيراها تتعمد عارية في النيل فيغضب بشدة، النيل هو الحياة والمرأة بيضاء وغربية، لن يتركها تلوث مياههم التي يشربونها، سيطعنها وسيتركها تنزف حتى الموت. وحين طعنها وتركها تنزف حتى آخر قطرة وجدها تهلْوس بترانيم ممتزجة بآيات قرآنية جميلة. وهنا بكى، سمع الله يتحدث من خلالها بشتى اللهجات، وهنا عشقها. وداواها.

وبعدها، حين تشفى سيتزوجها، وبعدها سيخلدان معًا لأنهما سيقْتلان غرقًا عند الفجر في النيل الأزرق الحزين.

هكذا كان يحكي جعفر وهو جالس القرفصاء في منتصف الدائرة وهم– الحمالين وأهل القرية الطيبين– كانوا ينصتون بأعين مندهشة باكية. ثم لم يلبث أن تساءل أهل القرية عن مكانها، أين تلك المرأة الآن؟ يريدون رؤيتها والتبرك بها، لكن جعفر اكتفى بإجابتهم بـ: "الله أعلم". وفي الحقيقة، هو – بفضل الله – كان يعلم أيضًا. كان يراها في الطريق إلى مقام السبع بنات بصحبة مريم العذراء، وكان يرى الشيخ المناوي– ابن مارية القبطية– في الطريق إليها من شارع أبو ذر الغفاري، وفي الجبانة، عند قبب الشهداء كان يرى نصر الدين لا يزال يطارد طيف وردة. وكان جعفر يرى هذه المشاهد بشكل خاطف وسريع.

كانت وردة قد ألقت عن رأسها طرحتها السوداء فوق الرمال وهي تجري نحو قبب الشهداء، فأمسكها نصر الدين وشمها. كان لها ملمس حريري ورائحة عطرة طيبة. ضحكت وردة ضحكتها الندية الجميلة فطاردها نصر الدين في الصحراءِ حتى وصلا هنا، حولهما قبب الشهداء والأضرحة، والموتى والشهداء. وردة تضحك ببراءة طفولية رائعة كأنها لا تدري شيئًا عن الموت، هل ماتت وردة أم لم تمت بعد؟ جرى نصر الدين ودخل وراءها أحد القبور ولكنه لم يجدها بالداخل، خرج مندهشًا فوجدها تضحك أمام قبر جديد. وهكذا ظل يدخل وراءها كل قبر فلا يمسكها، حتى بدا كأنهما طفلان صغيران يلعبان الاِسْتغماية في أرض الموتى. وفي النهاية كان نصر الدين زار كل شهداء النبي مثل: مقام محمد

بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، مقام سيدي الحسن الصالح بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومقام محمد بن أبي ذر الغفاري، ومقام محمد بن عقبة بن نافع، وآخرين، فوق ما يزيد على أربعة آلاف قبر. وها هو قد شعر بالتعب أخيرًا ومع ذلك لم يستسلم، طاردها مرة أخرى ولكن بخطوات بطيئة تعبة وهي تدلف إلى المقام الأخير. للمقام مئذنة جميلة ملونة تطل من الجبل، تنادي الناس، هلموا إليّ، لكن الناس لا يلبون النداء. المقام بعيد ومنعزل في الجبل ومحاط بتلك الصخور الكبيرة التي تسكن أسفلها الثعابين والعقارب. دخل نصر الدين المقام فلم يجد وردة وإنما وجد رجلًا غريبًا يرتدي معطفًا أبيض وشم رائحة بخور طيبة. لم يعرفْ أن الرجل هو صاحب المقام والكرامات، سيدي الطبيب المغربي أبو سمرة. غير أن الرجل قال بلهجة مغربية وابتسامة طيبة ودودة: "كيفاش؟، سنعالجك". ابتسم نصر الدين سعيدًا واقترب. وضع الطبيب يده على صدر نصر الدين وقرأ بصوت جميل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ..﴾، فرأى نصر الدين حقولًا خضراء شاسعة لا نهاية لها. وظل ينادي على وردة فلم يجدها و لم يعرف أين هو وأين هي، سوى عندما أغمضت جفونها فحَلّ الليل.

كانت إيزابيلا تقف أمام مقام السبع بنات ولا ترى نصر الدين الهائم وهو يطارد طيف وردة بالمقابر. كانت تنصت لمريم العذراء وهي تحكي لها قصة السبع البنات اللاتي لا يعلم عددهن إلا الله وحده. تحررت هذه البنات القبطيات من خوفهن، حملن سيوفهن ولثَّمن وجوههن، وخرجن للحرب مع المسلمين ضد بطش الرومان حتى سقطن شهيدات جميعًا؛

فتحررت بعدها المدينة. وبعدها، اكتشف المسلمون أمرهن فبكوا موتهن كما لم يبكوا من قبل، ما كان لهم أن ينتصروا في الحرب لولا وجودهن وشجاعتهن؛ لذا شعرت إيزابيلا بالسعادة وهي تصافحهن جميعًا، ولم تفكر بأن تعدهن، هن كما يعرفهن الناس، حوريات المسيح السبع الجميلات.

ألقى الشيخ المناوي السلام على إيزابيلا ومريم العذراء فالتفتت إيزابيلا مندهشة. لم يكن سر دهشتها هو معرفة الشيخ بصحبة مريم لها– فالشيوخ يعرفون وهذا أمر عادي– ولكن سر دهشتها هو الثراء الفاحش البادي على الشيخ وقد عهدت الزهد من شيوخ الطرق. كان الشيخ يرتدي عمة كبيرة لم تر بحجمها وجلالها عمة أخرى من قبل، وعباءة زرقاء طويلة، وخاتمًا فضيًّا في اليد اليمنى. سألها الشيخ إن كانت تحمل رسالة له فأبلغتها كاملة، ولكن بلهجة عربية ركيكة فبدا على الشيخ عدم الفهم، ليس بسبب لهجتها وإنما بسبب فحوى الرسالة. سيُقتل؟ كيف؟ يا لها من بشرى عظيمة. ثم فكر بحزن، ولكن من القاتل البائس التعيس يا ترى؟ من؟ ابتسم وهو ينصت إلى همس الملائكة. يا لها من بشرى أخرى عظيمة. من يكون ذلك التلميذ؟ سيعرف بعد لحظات. هذا أمر رائع حقًّا.

خلع الشيخ العمامة والعباءة الزرقاء والخاتم الفضي ووضعها فوق مقام السبع بنات؛ فبدت الدهشة في عيني إيزابيلا فأجاب دهشتها: "الموت اقترب يا بنيتي، والزهد بوابتي الأخيرة للسماء". وبعدها سارا معًا في الطريق إلى القافلة. وفي الطريق، ناداه طفل صغير قائلا: "جدي يا جدي

نسيت حاجتك". حاول الشيخ إقناع الصغير أن يأخذها لكن الصغير خاف ووضعها فوق الرمال وهرب. تركها الشيخ بدوره وأكمل الطريق. لكن طفلًا جديدا ظهر ونادي الشيخ: "جدي حاجتك يا جدي". ووضعها على الرمال وجرى، وهكذا طوال الطريق. لم يأخذ أي طفل شيئًا، كانوا يعيدون العمامة والعباءة والخاتم الفضي ويجرون هاربين. ولاحظت إيزابيلا شيئًا آخر، كان الأطفال يتبعون الشيخ ويجمعون أثره فوق الرمال في جوالق، وعندما دققت النظر في الرمال وجدتها ذهبًا. و لم تعرف إيزابيلا أن الأطفال كانوا يعيدون الجوالق الممتلئة بالذهب أمام دار الشيخ الذي يستيقظ كل نهار، ويجاهد للخلاص من الذهب القديم فيجمعون ذهبًا جديدًا، وهكذا دواليك.

استعدت القافلة للتحرك مرة أخرى بعدما زودها الشيخ المناوي بالكثير من المال والزاد. وقف أهل القرية لتوديع القافلة وتوديع صديقهم جعفر وهم يبكون. تسلق بعضهم النخيل حتى يروا القافلة لأطول مدة قبل أن تختفي من أعينهم، لكن القافلة لم تتحرك؛ عطلها غياب كل من نصر الدين ويحيى. كان الأول قد نام في مقام سيدي أبو سمرة، واستيقظ فجأة مشفيًا مبروءًا من شروده القديم وتذكر أمر القافلة فجرى عائدًا متعثرًا في الرمال، وأما الثاني فقد كان منشغلا لاهيًا عن السفر في جمع ذلك الذهب الملقى في الصحراء، داخل تلك العباءة الزرقاء وقد ارتدى عمامة كبيرة وخاتما جميلا، وبعدما جمع أكبر قدر مستطاع قرر العودة أخيرًا إلى القافلة بخطوات حذرة بطيئة، خشية أن يفقد حصوة ذهب واحدة. وهناك رآه الشيخ مرتديًا عباءته الزرقاء فسعد ونظر إلى السماء

سعيدًا وممتنًّا. لكن الناس لم يسعدوا، بل غضبوا بشدة وهجموا على ذلك اللص، وكادوا أن يقتلوه لولا أن أنقذه الشيخ من أيديهم وأمرهم بالابتعاد فانصاعوا. اقترب الشيخ من جمل إيزابيلا وأخبرها بأن رحلة ذلك الشاب قد انتهت؛ فابتسمت بسعادة، لكن يحيى لم يبتسمْ و لم يفرحْ بل اعترض؛ فقال الشيخ مندهشًا متصنعًا الخوف: "ماذا أسفل أقدامك؟" فنظر يحيى إلى الأسفل وتراجع للوراء قليلا فوجد ذهبًا وراء كل خطوة يخطوها فوق الرمال؛ فسعد بشدة وقرر البقاء.

عاد نصر الدين أيضًا وحزن قليلا عندما علم بعزم يحيى على البقاءِ، ثم قال: "هو اختيارك". ابتسم يحيى وسار مختالا أمام نصر الدين حتى يرى هذه المعجزة الجديدة فاندهش نصر الدين، وإن شعر بالشفقة في سره. ثم تصافح الاثنان وودعا بعضهما. ركب نصر الدين الجمل وعلت صرخة جعفر القوية فنهضت الجمال. وعلت فجأة أصوات أهل القرية وهم يودعون، حتى علت فوق أصوات رغو الجمال وهي تودع هذه الأرض الطاهرة. لاحظ نصر الدين أن هناك شخصًا جديدا قد انضم إليهم، ما كان للشيخ أن يأخذ أحدًا منهم دون أن يعطيهم البديل، وكان البديل فتاة تجلت فوق جمل يحيى. ترتدي بُردة سوداء مطرَّزة بخيوط زرقاء رفيعة، وتلثم وجهها بشال أسود. لم يظهر من الفتاة سوى عينيها. كان لها عينان خضراوان ساحرتان ومألوفتان.

***

هذه المرة طال الطريق بنصر الدين وحده. كانت القافلة قد عبرت الكثير

من الصحاري والحقول والبلدان، وزاروا الكنائس والمساجد ومقامات الصالحين مثل: دير العذراء الجنادة أبو تيج، ودير السيدة العذراء المحرق بأسيوط، ومسجد سيدي جلال الدين المحلي بسوهاج، ومسجد سيدي عبد الرحيم القناوي. لكن نصر الدين لم ير شيئًا من تلك الأماكن، كان شاردًا فيها ولا يرى أحدًا سواها، هي الفتاة الجديدة التي انضمت إليهم. هل هي وردة حقًّا؟ هل نسيت عينيها الخضراوين؟ تبدو هي ولكن كيف وقد داواه الشيخ المغربي في المقام؟ تبدو هي، وردة، محبوبتك وغايتك من السفر.

طال الطريق بنصر الدين وحده، ظل ينتظر الفرصة المناسبة للاقتراب منها لكنها بدت بعيدة كالأفق؛ لأن جعفر لم يسمحْ بذلك. كان ظلها وملاكها الحارس، يسير حولها من كل الجهات، عن يمينها ويسارها وأمامها وخلفها، يحميها من حماقة ذلك الشاب العاشق. قال لنصر الدين: "لا تقترب من البنية يا زول"، وقال أيضًا "هي دواؤك وأنت داؤها"، وأكملت إيزابيلا: "حتى حين!". لكن نصر الدين لم ينصت إليهم و لم يطعْ. وانتظر حتى توقفت القافلة بالقرب من النيل وشجر الصفصاف، وهنا وجد الفرصة التي ظل ينتظرها كثيرًا. ذهبت إيزابيلا لاستكشاف تلك القرية الجديدة، وجلس جعفر مع الرجال الثلاثة أمام النيل يقص عليهم بقية الحكاية، بينما بقيت الفتاة وحيدة في خيمتها. وتسلل نصر الدين إليها من ظهور الرجال، ودخل خيمتها فرآها تتحول إلى مسخ، فأل سيئ أن ترى العروس قبل العرس. صرخت الفتاة وصرخ معها نصر الدين وهرع جعفر والرجال لنجدتها. أمسكوا بالشاب ودفعوه خارج الخيمة فوقع أرضًا

و لم ير بعدها سوى الظلام؛ لقد عُمي. وعلى الرغم من ذلك ظل يصرخ مع الفتاة بجنون، حتى هدأت حين عادت إيزابيلا ونامت فوق حجرها؛ فهدأ نصر الدين قليلا. وسأل جعفر عما حدث، ما قصة تلك الفتاة؟ هل هي وردة؟ لماذا مسخت ملامحها حين رآها؟ فأجاب جعفر بحزن: "لن تراها قبل المقدر، ليس اليوم". وبعدها ماذا حدث؟

بعدهاَ. تركك أصدقاؤك يا نصر الدين وحيدا وأعمى في هذه القرية، ومضت القافلة من دونك إلى أسوان. لم يظلموك لكنك من اخترق الحجب. قالوا إن رحلتلك قد انتهت على أية حال، فقد كانت تلك هي الإشارة. حذرك جعفر مرة بعد مرة لكنك لم تطع. القاعدة الأولى في السفر هي: أطع دليلك، فلماذا لم تطع؟ لماذا اخترت أن تنهي رحلتك بيديك؟ قالوا إنك لن ترى شيئًا حتى مطلع الشمس، وقالوا أيضًا لا تبرح مكانك حتى ترى الطريق. وقالوا أشياء أخرى كثيرة مهمة عن شيخك والشمس، لكنك لا تتذكرها. جاهد يا نصر الدين كي تتذكرها. جاهد يا نصر الدين. جاهد.

7
البرزخ

كفرتُ بدين الله والكفر واجب.. عليَّ وعند المسلمين قبيح

كان نصر الدين جالسًا في هذا الظلام، حيث لا صلاة ولا غناء ولا حياة. كأنما سجن داخل ظلمة نفس تلك الفتاة، هل كانت وردة حقًّا أم فتاة عابرة مسحورة؟ لا يعرف ولا يريد أن يعرف. يريد فقط مقابلة أي إنسي في هذا المكان المقفر المهجور. مضت ساعات وهو جالس لا يسمع شيئًا سوى صرير الجراد وبعض الحشرات الصغيرة الأخرى. وفجأة انتفض حين سمع دندنة خافية آتية من الظلام. هناك. وهنالك كان ذلك العجوز الهزيل ذو اللحية البيضاء القصيرة يعبر جسر القرية. نهض نصر الدين سعيدًا، مستندًا على الظلام، وسار يتبع الدندنة في الطريق حتى

وصل للعجوز. ورآه – رغم العمى – فظنها إشارة ما. وجرى مسرعًا للشيخ ومرددًا بسعادة: "شيخي.. شيخي"، فابتسم العجوز وقال بسعادة بدوره: "تعال يا ولدي. سأدلك على الشيوخ".

عجيب هو أمر الزمان. دائرة مغلقة قديمة ومكررة. على نفس هذا الطريق سارت ليلى من قبل وهي ذاهبة إلى الشيوخ كي تستجديهم وتقول: "أريد ولدًا من رحمي". ها هي خطوات أقدامها لا تزال على الأرض. يراها نصر الدين ولا يعرف لمن تكون. الظلام دامس والعمى قائم، فلماذا يرى أشياء دون أشياء؟ إشارات وإشارات.

يحس بملمس ورق الشجر الناعم، ويشم رائحة الياسمين وهما يعبران الشجر إلى طرف القرية الخاوي. لا يتحدثان معا لكن العجوز كان لا يزال يدندن مقطعًا من السيرة الهلالية. لا يعرف متى أحب هذا المقطع مثلما لا يعرف أيضًا لم يعشقْ أهل القرية غناءها كلما سار أمامهم في الطرقات ويمسكون بالحجارة ويبدأون طقس الرجم الديني. لا يذكر لم يفعلون ذلك، سكير، هو والسكر ذاكرة النسيان.

مات الذين سحروا ليلى والقرية، لكن أبناءهم لا يزالون أحياء وباقين على عهدهم الأسود. وجوههم دميمة قبيحة ومظلمة كوجوه آبائهم وأجدادهم؛ هي اللعنة، الثمن العادل للسحر. "سيأتي غريبًا، شاب من بلاد الله البعيدة. فاتبعوه". لم يكن هو وحده من ينتظره لكن الشيوخ وحارث أيضًا كانوا ينتظرون. لكنهم لم يخبروا العمدة شيئًا، وهل أخبر السحرة فرعون شيئًا سوى: "اقتل ما شئت من البنين؛ فالملك لك". عجيب

هو أمر الزمان. دائرة قديمة مغلقة ومكررة. وها هو الغريب يتعثر بحارث في الظلام، شيطان القرية الرجيم.

اقترب نصر الدين من ديار الشيوخ فرآها مظلمة سوداء تقع فوق أرض جدبة مالحة، ويحيط بها شجر ميت. كان نصر الدين لا يرى سوى القليل مثل: الثعابين والبوم وأفرع الشجر اليابسة كأيدي الشياطين، لكنها كانت كافية للأعمى حتى يرى. حارث لم ير هذا، كان مسجونًا في نقطة قديمة. يقول المقدر، يقول إن هذه الأرض طاهرة وتسكنها مقامات الأولياء الصالحين المباركين. وهنا – بمساعدة الشيوخ – سترى كل ممالك العالم وأمجاده، الفرس والروم، وبريطانيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا. هنا ستمتلك المملكة التي تريدها، والثمن بخس. وهنا أدرك نصر الدين النقطة التي يقف عليها في دائرة الزمان؛ فأجاب مثلما أجاب المسيح من قبل: "اذهب يا رجيم، للرب وحده نسجد؛ ليس لنا رب سواه". وبعدها، شق نصر الدين رأس حارث نصفين بحجر ثقيل فسقط على الأرض داميا وصامتًا. وبعدها، ظل نصر الدين يجري، وهو يتعثر في الظلام بعيدًا عن تلك الأرض الملعونة التي تسكنها الشياطين والسحرة، وخرجت الثعابين من جحورها – وتعالى فحيحها– والشيوخ ذوو الأعين الظلماء والوجوه الدميمة، الذين وقفوا في الظلام كي يلقوا نظرة غضب على الزائر الغريب.

هل فتحت وردة جفنيها فانقشع الظلام؟ كأن الرؤيا التي رآها في مقام الشيخ المغربي تتحقق، ها هو النهار يبزغ أخيرًا بعد ليل طول فوق القرية. وها هي الحقول تستعيد رونقها الأخضر. استيقظ نصر الدين فرأى السماء

زرقاء مزينة بقليل من السحب، والشمس مشرقة متوهجة بالحياة؛ فشعر بسعادة. وسمع ضحكات غنجة تلقى هنا وهناك فتبعها حتى الترعة، التي وجد فيها فتيات مدهشات عاريات يسبحن في الضوءِ والماء ويرْششْن أجساد بعضهن بمرح طفولي، لكنهن تبخرن عندما أطالَ النظر فيهن كما تتبخر جنيَّات الأحلام.

منذ قليل رأى نصر الدين حلمًا جديدًا، قابل طيف طفل ذي عينين عسليتين واسعتين، أعطاه الطفل نبلة وقال بابتسامة سعيدة: "أنا سعيد لأنك جئت أخيرًا، هذه هديتي لك لأنك ضربت حارث. ابحثْ عن شيخك؛ سيفرح جدًّا حين يراك". قال ذلك ثم تسلق السحب ورفع بساط السماء الأزرق ودلف من أسفلها. تحسس نصر الدين جيب الجلباب الأبيض فلم يجد شيئًا وشعر بالحزن. لماذا تبدو الأحلام أصدق دومًا من الواقع؟ بالأمس قابل شيطانًا في الظلام واليوم قابل ملاكًا في الحلم، فلم لا يصدق سوى الحلم؟ و لم تملأ الشياطين الطرقات وتختبئ الملائكة في الأحلام؟ عندما سار للأمام عدة خطوات وجد النبلة متدلية من غصن شجرة كبرتقالة وبجوارها سبحة جميلة، فأمسك بهما وتلفت يمينا ويسارًا على أمل رؤية الملاك الصغير لكنه لم ير أحدًا. كان وحيدًا أمام الترعة الحزينة، التي ألقى عليها نظرة طويلة، وأوشك أن يغادرها فسمع الآتي:

اقْتلُـوني يـا ثقاتـي.. إنّ في قتلـي حياتـي
ومماتـي في حياتـي.. وحياتـي في مماتـي

إنّ عندي محْو ذاتي.. من أجلّ المكرمات
وبقائي في صفاتي.. من قبيح السّيّئات

كان الصوت عذبًا جميلا لكن ذا أنين معذب، لم يخرج الصوت من الترعة مثلما ظن للوهلة الأولى، وإنما جاء من هناك، من وراء الديار؛ فسار إلى الناحية الأخرى وهو يتبعُ غناء الرجل الحزين المؤلم:

سئِمتْ نفسي حياتي.. في الرسوم الباليات
فاقتلـوني واحرقـوني.. بعظامـي الفانيـات

عندما وصل إلى الساحة وجدها ممتلئة بالناس الجالسين على الأرض، والممسكين بالأعلام الملونة الحمراء والزرقاء والخضراء، وفقد صوت الغناءِ. وجد الناسِ يرقصون على الطبل ويهزون رؤوسهم وهم يسبِّحون باسمِ الله، ويصلُّون كثيرًا على النبي المختار، فشعر بسعادة ونشوة في هذا المزيج الصوفي الجميل. حاول إيجاد الصوت من مزيج الأناشيد والأصوات لكن الصوت كان خافتا للغاية، لا يكاد يُسمع.

ثـم مُـرّوا برفاتـي.. في القبـور الدارسات
تجـدوا سـرّ حبيبـي.. في طوايـا الباقيـات

تجاهل نصر الدين الصوت الحزين بعدما تلاشى، وانشغل في تلك

الأغاني والأشعار والتواشيح والأصوات الأخرى الجميلة. أحدهم يغني بلذة: "عرفت الهوى مذ عرفت هواك.. وأغلقت قلبي عمن عداك"، وآخر يستند على المسجد ويبكي: "إلهي لا تعذبني فإني مقرٌّ بالذي قد كان مني"، وثالث يقف بين الاثنين ويقول: "هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا.. فليس عنهم معدل وإن عدلوا". وبقية الناس يرقصون على دق الطبول، يهزون رؤوسهم ويرددون: "الله الله الله". ونصر الدين يجري بينهم ويرقص ويدور، ويردد: "سيدي دعاني.. مدد يا سيدي مدد". ويستمر في الرقص والدوران حتى يصطدم فجأة برجل فيسقط أرضًا. الرجل لا يبالي بالشاب الواقع أرضًا، ويكمل السير حتى يصل إلى دارهم عند الترعة. الرجل نحيل وذو لحية قصيرة سوداء، يتخللها بعض الشعيرات البيضاء، ويمتلك عينين حزينتين متعبتين من شدة البكاء. يلقي نظرةً أخيرة على الساحة قبل أن يدلف داره حزينًا وهو يتمتم: "للعمدة القديم مولد وللعمدة الجديد مولد، وللناس طقوس في عبادتهم".

ظل نصر الدين جالسًا مع هؤلاءِ الدراويش، يأكل معهم ويرقص معهم ويتأمل لحاهم الطويلة المتدلية على صدورهم، والسبح الطويلة المعلقة حول رقابهم وجلابيبهم الملونة وأعلامهم الكثيرة. وبعد غروب الشمس تحرك الحشد أخيرًا، أوقد الناس مشاعلهم وساروا في الطريق الضيق الملاصق للمسجد وهم يغنون ويسبحون. ألقى نصر الدين نظرة خاطفة على المسجد الصغير فوجده ممتلئًا عن آخره بالدراويش وأبناء السبيل. سأل نصر الدين الرجل الذي يجاوره: "أين ذاهبون؟"، فأجاب الرجل ببلاهة:

"لا أعرف... أسير مع الناس". وسأل درويشًا آخر فقال: "سنزور سيدك وسيدي. مدد يا بو هشام مدد".

أهمل نصر الدين الحشود وسار وحده يتبع الموسيقى؛ فهي الطريق. كان يصعد الجبل من دون مشعل أو مساعدة رغم الظلام الدامس. من بعيد كانت هنالك نار تتوهج، آلاف المشاعل التي يمسك بها الدراويش في الجبل، وبالأسفل الجبل يبدو كقنديل مضيء ومدهش، لكن نصر الدين لا يرى سوى الظلام. فلم؟ لم شعر بالحزن العميق المفاجئ؟ ربما سمع أنين الموتى وهم يستغيثون أسفل الأرض من أقدام الناس التي تدهس بقاياهم وترقص فوق رفات أحلامهم. لا، لم يسمع شيئًا. ها هو يجري كالعبيط مثل بقية الناس في الظلام حين اقتر ب من المشاعل والموسيقى والأناشيد.

السراديق تملأ أرض الجبانة. سراديق زرقاء وحمراء مرسو عليها بنقوش تحمل لفظ الجلالة. الناس يملأون المكان وحلقات الذكر. يتعالى صوت تسبيحهم واستغفارهم للملك الجبار. حلقات الذكر تتداخل في بعضها بعضًا، دوائر تتداخل في دوائر أخرى. الفتيات يرقصن بسعادة والرجال يرقصون ويهزون رؤوسهم وهم يرددون: "الله الله الله"، متناغمين مع نغم الربابة والمزمار ودق الطبول. ها هو المنشد يقف هناك مرتديًا عباءة بيضاء مطرزة بخيوط زرقاء، عشرات المنشدين يقفون أمام السراديق. وها هو نصر الدين يقف مندهشًا أمام راقص التنورة وهو يدور. يردد معهم: "الله الله الله"، واللفيف يدور. يرقص ويدور يرقص ويدور، والمنشد يغني بصوت شجيٍّ:

اللهم صل على الذات المطلسم
والغيب المضمضم والكمال المكتتم
لاهوت الجمال وناسوت الوصال
طلعة الحق كثوب عين إنسان الأزل
في نشر من لم يزل

اللفيف يرقص، اللفيف شمس والناس كواكب. اللفيف يرقص، اللفيف كعبة والكون محض نقاط صغيرة. يرفع اللفيف يده للأعلى وينزل يده الأخرى فيربط بين السماء والأرض. اللفيف مسيح مخلوق محروس بالروح القدس. اللفيف يرقص ويدور، يرقص يرقص؛ فيتخفف من الأحمال والخطايا الثقيلة حتى يعرج إلى السماءِ. والمنشد لا يزال يغني:

من أقامت به نواسيت الفرق في قاب قوسه
ناسوت الوصال
الأقرب إلى طرق الحق
فصل اللهم به فيه منه عليه وسلم
يا رب
يا الله
يا هو
يا من لا إله إلا هو

يتذكر نصر الدين أنه لم يلق التحية على سيده بعد؛ فيخرج من السرداق ويسير في الزحام مع السائرين. لماذا يمقت الزحام والظلام لهذا الحد؟ يسمع وسوسات الشياطين تدوي في المكان رغم الذكر، ويرى أطيافهم تمر بالمكان. يعلو صوت المواويل بالقرب من سرداق في الأمام ويعلو صوت الربابة عن اليسار، وفي اليمين توجد امرأة تناجي ربها وأخرى هناك في الظل تحتضن رجلا وبعض الشياطين. كيف تجتمع النقائض في شيء واحد؟ الملائكة والشياطين يرقصون في حلقة ذكر واحدة. يسبحون، ويوسوسون. لكن الناس لا يفقهون رقصاتهم.

الزحام شديد لكن نصر الدين ينجح في التقدم أخيرًا ويقف أمام مقصورة الولي الصالح ويتوضأ من شروره، لكن بم؟ كيف يمكن للمرء أن يتوضأ في الظلام بالظلام؟ لا يوجد مشعل بالقرب من المقام. يسمع همسات الناس فيقلدهم فيما يقولون: "سيدي سيدي، نظرة للغريب يا سيدي، نظرة تأتي باليسرى، نظرة". لم يزداد الظلام أكثر؟ يستقبل القبلة ويصلي ركعتين لله، وعندما ينتهي ينظر للسماء. التنورة سوداء، لماذا يدور راقص التنورة بالناس والكون؟ يشعر بالحزن والتعب؛ فيستلقي بجوار الضريح للنوم. يقرر النوم أسفل القبة الخضراء. تلك القبة الخضراء الجميلة التي ترش التائهين والخائفين إلى الشيخ، فلم يشعر بالخوف و"التوهان" بجوارها؟ مدد أيتها القبة الخضراء. "مـ د د".

في الظلام يتحرك ظل بين شواهد القبور و"اللحواش"، ويتحاشى الناس حتى يصل إلى تلك القبة الخضراء. يحبّ النبي محمد اللون الأخضراء،

وكذلك الأولياء يحبون ما يحب، ويحبون الموت أيضًا فهو الشاهد على بقائهم وحب الناس. لكن الظلال لا تحبّ الألوان لأنها تزيفها. وهو ظل صار شمسًا فمات. يعرف نعيم هذا ويعرف أيضًا أن لبعض الناس أقدارها أما البعض الآخر فتخلق قدرها بيديها.

مسكين هو عبد النعيم، شاخ في بضعة أيام من شدة الحزن. ها هو يقف أسفل القبة الخضراء ملثمًا بشال أسود داكن وممسكًا بفأس، يرتدي جلبابًا سوداء اللون أيضًا. يحتمي بالظلام من الظلام كي يستر نوره. ويحتمي أيضًا بالعمدة الذي جاء أخيرًا ليلقي كلمة كالمعتاد في السرداق الكبير. والناس، كل الناس، يقفون هناك أسفل العمدة، يسبّحون ويهللون. من يجرؤ على عدم حضور مؤتمر العمدة ومخالفة أوامره سوى أحمق ثائر وآخر نائم؟

يرفع عبد النعيم الفأس للأعلى ويحطم رأس القبة الخضراء. يضرب مرة فأخرى ويعلو صوت الهدم ويعلو أيضًا صوت شخير الغريب. ينظر نعيم للشخص النائم في الظلام، ويضرب القبة مرة أخرى بعنف لكن الغريب لا يستيقظ. يعلو صوت العمدة في الميكرفون وهو يحدثهم عن كرامات بو هشام التي فاقت سليمان الحكيم. يخبرهم أن القرية تمر بأيام صعبة، وأن الصبر حق الله على العباد، والمولد مناسبة طيبة لطلب المدد. يضرب عبد النعيم القبة بقوة أكبر حتى تتحطم تمامًا، ويحطم إبراهيم الأصنام ولا يترك سوى الصنم الأكبر. دائرة قديمة لا تزال تدور كأنها حلقة ذكر أو تسبيحة أبدية، أو رقصة جميلة بتنورة ملونة في السماءِ.

استيقظ نصر الدين على هاتف يأمره بهذا: "أفقْ يا ولدي؛ الخطر يقترب". فاستيقظ و لم يجد أحدًا. لم يجدْ سوى فأس نائمة فوق صدره. أمسك بالفأس متعجبًا ورفع عينيه فوجد المقام محطمًا، يا للمصيبة!. انتفض المسكين وتلفت حوله فسمع همهمات الناس تقترب من كل ركن في الظلام. كم يبغض الظلام! ورأى الشياطين أيضًا وهي ترقص بهستيريا وجنون، تنادي الناس: "هلمُّوا.. هلمُّوا". والناس يقتربون ويهمهمون بالشر، ونصر الدين لا يعرف ماذا يفعل. ينظر للمقام ويطلب المدد من الشيخ، أيّ مدد؟ المقام مهدم والقبة الخضراء الجميلة ما عادت كذلك. الغريب يمسك بالفأس، دليل الجريمة، ها هو الجاني والضحية. الناس يقتربون، الخفر يقتربون، الكلاب تنبح من بعيد... بعيد جدًّا. الجميع يستعدون لمطاردة الأرنب المسكين.

يجري نصر الدين، يعدو، والقرية تجري، تعدو، تطارده من الخلف. الغبار يتناثر من أقدام الناس الكثيرة، الرجال، والشباب، والأطفال، والنساء أيضًا، والخفر والكلاب. يعلو نباح الكلاب وصياح الناس. الجميع يريدون ذلك الغريب الذي حطم مقام سيدهم. والغريب يجري، ويعدو، وينزل الجبل. يتعثر فيتدحرج قليلا فوق التراب. ينهض ويجري مرة أخرى من جديد. الشاب يعدو بسرعة للغاية لكن القرية بأكملها وراءه. ينزل الجبل ويدخل في زقاق ضيق. الناس يصيحون، يشتمون، ويلقون بالحجارة وبالطعام على الغريب.

الزقاق ضيق والفجر يتسلق ظلمة السماء. زرقة الفجر تمتد وتعانق

جدران الديار والطرقات والهواء. الشاب يعدو والصورة المرسومة فوق الجدران تعدو للخلف فتصطدم بهم. يتعثر أحد الحفر فيتعثر وراءه الكثير. الأرنب يجري بسرعة لكن كلاب الصيد لا تزال تنبح. حسين يتساءل ببراءة: "هل يفعلها الأرنب؟"، وعبد النعيم يشرد أمام الترعة التي تتوضأ فيها الشمس.

يعدو الغريب بكل ما يستطيع من قوة. يلهث لكن لا يتوقف. يدخل زقاقًا فزقاقًا آخر ويقابل بعض الناس. لماذا تبدو القرية كبيت العنكبوت؟ هو لن يكون الوليمة. يسمع صيحات الناس في الخلف فيعدو للأمام ويدفع من يقابلهم، فيسقطون أرضًا. من أين للأرنب الضعيف هذه القوة؟ يجري مسرعًا ويتسلق فوق أحد البيوت، ويقفز من سطح إلى آخر، يجري ويقفز ولا ييأس، والناس بالأسفل يجرون، ويتصايحون، ويقذفون بالحجارة، فيتفاداها كمن يرقص فوق حبال غير مرئية. الشياطين بالأسفل ضدك فهل معك الملائكة؟ من وضعك في هذا المأزق يا فتى؟ يقفز إلى الشارع الآخر، شارع العمة العمياء. الشارع فارغ لكن هذا لن يدوم؛ الناس يتسلقون الديار وبعضهم يعود للوراءِ نحو أقرب زقاق. لماذا طال الشارع هكذا؟

ها هو المسجد يلوح في الضباب. يجري الغريب بسرعة الريح والبرق. الملائكة معك بالفعل. يراهم، ها هم في كل مكان، هل يختبئ داخل المسجد؟ لن يفعل. المساجد لا تحمي عباد الله من الطغاة. يعدو للأمام معهم حتى ساحة القرية، وهنا يتوقف لحظة ويلتقط الأنفاس، ويجري مرة أخرى. ناحية الجسر؟ لا، لن يعبر. أين ذهبت الملائكة؟ هناك،

ناحية تلك الديار، يجري معها ويتوقف فجأة. أين ذهبت الملائكة؟ لقد اختفتْ. الصيحات تعلو من شوارع القرية الثلاثة: شارع الخمارة والعمة والطاحونة. الصيحات تعلو أكثر فأكثر ونصر الدين لا يزال مُتسمِّرًا. الصيحات تعلو.. تعلو.. تعلو، سيرونك، سيخرجون.. ها همـ..، وفجأة ينفتح باب من ورائه وتشده يد إلى الداخل.

8
الفناء

أنا الحقُّ والحقُّ للحق حقُّ.. لَابس ذاتهُ فما ثمّ فـرْقُ

ليلى ليلى! أيتها الموشح الصوفي الجميل، يا أصل السماع ولذة الزهاد، يا سر اللـه الأعظم في الوجود، ويا حضرة الأولياء وكأس الأنبياء، كيف أنت اليوم وقد نسيتك القرية كأنك امرأة من دخان، وكفروا بك؟. مسكينة وهزيلة وجائعة وممددة على الأرض، أسفل الجدار في ظلام غرفتك، السجن. تناجين ربك وتهلوسين من شدة الجوع. ازرقّ جلدك؛ الذي لم ير الشمس، وبهُت جمالك وذبُلت عيناك. سجنك ولدك في غرفتك ومنع الناس منك وعنك. والطعام؟ بعدها منع الطعام أيضًا. ليلى الكريمة الحرة الأبية يُذلها ابنها الذي كان كل مناها من الحياة. فلمَ؟ هي

لا تعرف. قد تهلوس، ترى وجود الشيوخ الدميمة في الظلام فتصرخ وتبكي. وتستغفر ربها مما كان؛ عسى أن يرضى ويرفع عنها اللعنة والسخط، ويعمدها بالشمس من وحل السحر الأسود. آمين، آمين.

لطالما وسوس حارث لهشام بقتل ليلى، يقول إن ليلى هي النور الذي يجذب الدراويش، فإن انكسر القنديل دام الظلام والملك. لكن العمدة لم يقتنع وظن أن حارث يريد أن ينقلب ويقلب القرية ضده، شيطان لعين هو. لم يفهم حارث ما المشكلة؟ قتل والده من قبل؛ فما المانع من قتل ليلى؟ ربط الشيوخ قدر القرية بقدرها؛ فإذا ماتت ليلى مات الناس، لكن العمدة لم يصدق، وقال: "كيف يعرف حارث أشياء لا أعرفها؟". يا لغرور العمدة الجاهل. لقد أخبره الشيوخ بالفعل و لم يخبروك يا عمدة مثلما لم يخبر السحرة فرعون. دائرة قديمة وأزلية ولا جديد فيها. الشيوخ. السحرة. جبناء، دمام، قباح، ضعفاء، الحيلة والسحر.

لم يسجنها العمدة بسبب وسوسات حارث، ولكن بسبب تلك الكوابيس التي يراها في المنام عنها. يسمع دومًا بكاء وليد جديد. أنجبت ليلى مرة أخرى ولد جديدًا يحمل ملامح عبد النعيم الهادئة والحزينة. يسمع صوتها المتعب وهي تغني للوليد: "يا ملح دارنا كبِّر عيالنا، عيال الله. واحرس صغارنا، صغار الله"؛ فيصيح فيها أن تصمت لكنها لا تطيع وتستمر في غنائها بشكل جنوني أسرع. وتظل هكذا كل ليلة وكل منام. حتى قرر أن يسجنها في غرفتها ويمنع عنها الشمس كي لا تزوره في الكوابيس مرة أخرى. لكن هذا لم يمنعها، أمستْ تجد طريقها كل مرة وتهرب وتزوره في الكوابيس أكثر مما كانت تفعل، فينهض ويلقي

عليها نظرة في غرفتها ويجدها لا تزال ممددة على الأرض أسفل الجدار في الظلام، فيشفق عليها ويقدم لها الطعام فلا تأكل. فمتى غضب عليها ومنع عنها الطعام للأبد؟ و لم؟

"مدد يا سيدي، مدد"

كانت هذه أول كلمة قالها الغريب لعبد النعيم حين رآه، بعدما شده إلى الدار. كان متعبًا خائفًا لا يزال يلهث إثر تلك المطاردة الطويلة التي نجا منها بمعجزة. هل نجا منها بالفعل؟ كان الناس لا يزالون يبحثون بالخارج عن ذلك الملثم الذي حطم مقام سيدهم واختفى فجأة. التقت عينا نصر الدين بعيني نعيم فعرفه على الفور، وقال: "شيخي". نعم، هو هذا الشيخ الذي أمرك جعفر أن تجده. لم يتذكرْ أنهما اصطدما ببعضهما في الساحة، و لم يدرك أيضًا أن هذا هو صاحب الصوت الحزين المعذب الذي شده عند الترعة، ولكن تذكر شيئًا آخر، لقد التقيا من قبل هناك في الصحراء البعيدة. ابتسم نصر الدين وقال بسعادة: "أنا حلمت بك"، ثم شرُد فجأة عندما تذكر الحلم، وقال بصوت حزين: "رأيت الصحراء ممتلئة بالدماء، فوق كل ذرة رمل نقطة دم. مشيت وراء الدماء حتى وجدتك. الدم دمك وأنت مصلوب هناك فوق جبل عال. الصحراء تشربك، كل ذرة رمل تنبت وردة. الورد يملأ الصحراء ويعلو كل شيء فيها.. حتى أنا". ثم تناسى الحلم فجأة وقال –وهو يتأمل نعيم فرحًا– "وأخير لقيتك، مدد... مدد يا سيدي مدد"

كان الناس بالخارج مجانين تماما وغاضبين. يشتمون شتائم بذيئة ويسبون الدين، كأنهم لم يكونوا بالمولد منذ قليل. يسبون الدين نصرة لله وللرسول، الجميع يفعلون هذا حتى النساء والأطفال أيضًا. يبحثون عن ذلك الملثم الذي أفسد ليلتهم، وحطم مقام سيدهم العالي، يريدون الانتقام من ذلك الشيطان، يزيحون كل ما يقابل طريقهم بعنف، يلقون بعربات الكارو ويدفعونها بعيدًا ويقلبونها على وجهها، وقد ينكب عليها بعضهم ويحطمها تمامًا دون سبب، يفتشون أكوام القش بالبنادق والعصي ويبعثرها بعضهم بأيديهم في الهواءِ بجنون. جن جنون الناس أكثر عندما لم يجدوا أحدًا، لقد رأوه بأعينهم وهو يبتعد عن الجسر ناحية الديار، فأين ذهب؟ كان بعضهم قد عبر الجسر، وبحثوا هناك في الطريق فلم يجدوه، وبعضهم كانوا قد نزلوا الترعة ولم يخشوا بطش عيشة أو أشباح الموتى؛ فالأمر عظيم، هذا مقام بو هشام الولي التقي الصالح، صاحب المقام المنهدم، وهو يحفظهم بالكرامات من عيشة وباقي الشرور. تأكدتْ ظنون الناس أن الملثم قد اختبأ داخل إحدى الديار فألقوا إلى البيوت نظرة كراهية. وفجأة أطلق أحدهم صيحة باقتحامها، وكأنها الإشارة السحرية التي انتظروها؛ فانطلقوا، وتفرقوا، واقتحموا الديار، وتعالَى صياحهم المجنون بالخارج.

قبلها، كان عبد النعيم ونصر الدين يبدلان ملابسهما معًا، دقائق قليلة هي المتبقية من العمر، فهل تكفي عبد النعيم كي يرى ويزور البلدان التي لم يزرها من قبل؟ كان الغريب يحكي بسرعة وهو يخلع الملابس عن المدينة التي جاء منها. العاصمة، القاهرة يا عبد النعيم القاهرة، القاهرة والجامعة

والحسين والغورية وشارع العطارين. كان عبد النعيم يرى كل الأماكن التي ينطق بها رغم عبارات الغريب السريعة والمقتضبة. حكى أيضًا عن المآذن الكثيرة الشامخة التي تملأ السماء، يعرفها عبد النعيم.. هي كالنخيل. وحكى أيضًا عن عظماءِ مصر، الفلاح الأسمر عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد، وأخيرًا سعدَ زغلول. وعندما ذكر نصر الدين سعدًا رآه عبد النعيم هناك في مالطة مصلوبًا، ورأى الناس يخرجون إلى الشوارع ثائرين. بدأ الأمر على يد طلاب الإسكندرية ثم اتّبعهم الناس من شتى المحافظات والمدن والقرى. في القاهرة أضرب عمال الترام وعمال السكك الحديدية وأتلفوا محولات حركة القطارات فتبعهم الفلاحون وقطعوا سكك الحديد في بلدانهم. في الإسكندرية أضرب عمال المطابع والفنارات والورش الحكومية ومصلحة الجمارك. وفي الأحياء خرج الفقراء وحفروا الخنادق ودمروا ممتلكات الإنجليز وأسقطوا التروماي. في المنيا أغار الأهالي على مراكز الشرطة وحرروا المعتقلين وضربوا رئيس المدينة بالأحذية. وفي الفيوم هاجم البدو قوات الإنجليز. وفي أسيوط هجم الأهالي على قسم البوليس واستولوا على السلاح، ولم يتراجعوا حتى بعدما تم قصفهم بطائرتين. وفي قرية نعيم هاج الناس واقتحموا خمارة ألكسندر وحطموها؛ فهرب الخواجة واحتمى بالعمدة ودوّاره، لكن الناس لم يتوقفوا وانقضّوا على الدوّار بالعصي وبالمشاعل وبصدورهم العارية. وظل اسم سعد ومصر يدويان في كل القرى والنجوع: سعد باشا زعيم الأمة، ومصر الحرة الأبيَّة المستقلة.

خرج عبد النعيم من الدار وقد ارتدى عباءة نصر الدين البيضاء ووشاح

الرأس، فالتفت الحشد وتسمرّ مندهشًا وهم يتأملون الخارج إليهم، أهذا هو عبد النعيم حقًّا؟. يعرف أهل القرية راعي الغنم الفقير الحَلبي، لكن الدراويش القادمين من القرى المجاورة يجهلون، ومع هذا اندهشوا. كانت هنالة هالة نورانية تحيط بجسده، وأشرقت الشمس من ورائه فبدا كالمسيح. وكانت هناك أيضًا تلك الحمامة البيضاء التي تحلق في السماء، والتي جذبت أنظار الناس إليها دون سبب قبل أن تحط أخيرًا فوق رأس راعي الغنم الفقير. تعالت همهمات الناس المندهشة، كل شيء في هذه اللحظة يوحي إليهم أن هذا نبي مجهول جاء إلى قريتهم المنسية أخيرًا. وبدوا وكأنهم سيعترفون بتلك النبوة ويسجدون ويستغفرون الله كثيرًا لكن –كالمعتاد– تعالت صيحة من الزحام؛ فأيقظتهم من سحرهم وعاد إليهم غضبهم وجنونهم، وقد تذكروا كل شيء: هذا الملعون حطم مقام سيدهم، ثم انقضّوا على النبي الكاذب. كان عبد النعيم يعرف مسبقًا أن هذا سيحدث؛ ولهذا قال للغريب: "سأخرج إلى الناس والناس سيخرجون عليّ. سيقتلونني، فاخرج من الدار ولا تخش أحدًا. أنا مسيح هذا الزمان، دعهم يقتلونني، اقتلوني اقتلوني، أنا بذرة جديدة، وأنت؟ أنت من سيجمع دمائي في الكأس". ثم أوصاه بالغنم وبالدار وبالأطفال والقرية. كان يعرف أن الغريب لن يترك القرية أبدًا، هذا قدره واختياره. نعيم لم يستطعْ أن يترك القرية رغم الشوق للقاهرة، و لم يترك رعي الغنم رغم الجوع والشهادة التي يحملها. ربما غفل عن الأطفال قليلا دون قصد، أخطأ الطريق مرة أو مرتين، لكن الغنم قد تجد راعيها من جديد.

رعي الغنم، تلك المهنة المزدراة من الناس، مهنة الأنبياء، من ذاق جمالها عرف، ومن عرف اغترف.

امتدت أيادي الناس وسبّحَتْ في الهواء وهي تنهش جسد عبد النعيم، الزحام كثير وأيادي الناس كذلك، أيادي الخفر والرجال والشباب والشيوخ والنساء. والأطفال؟ لا، الأطفال وقفوا في الخلف مصعوقين وهم يراقبون ما يحدث. أهذا هو شيخهم نعيم حقًّا الذي يقتل أمام أعينهم. بالطبع هو، والناس؟ لا الناس ليسوا هم الناس، تحولوا فجأة إلى ذئاب بشرية، جن جنونهم، يهللون باسم الله ويتسابقون على قتل الشيخ. تمتد أياديهم الناهشة والغاشمة إلى جسده النحيل فيمزقون الجلباب البيضاء التي يرتديها، وينهشون جلده وينتفون لحيته القصيرة السوداء. والشيخ؟ الشيخ ظل واقفًا كنخلة شامخة مثمرة، لم يجبنْ، لم يتحركْ، لم يسقط، ظل واقفًا، مغمض العينين، مستسلمًا لقدره الذي اختاره. وأيادي الناس لم تتوقفْ عن الضرب، والنساء لم يتوقفن عن السباب والبصاق، حتى بعدما سقط الشيخ دهسوه بأقدامهم و لم يتوقفوا جميعًا.

أطلق رجل آخر صيحة جديدة، كأنها أمر إلهي من السماء،: "قيدوه"، فقيدوه بحبل طويل وغليظ. من أين أتوا بالحبل؟ وبدأوا يجرّون جسده حتى ساحة القرية الواسعة. خرج نصر الدين من الدار خائفًا مرتعشًا متخفيًا بعباءة عبد النعيم السوداء، وملثما بشال داكن، ثم لم يلبث أن تشجع عندما لم يبالِ بوجوده أحد. كان الجميع منشغلين بضرب الجاني المقيد والدامي في ساحة القرية. وقف نصر الدين يتأمل آثار الدماء على الأرض

مصعوقًا، ووراءه يقف بعض الأطفال المذعورين والمصعوقين كذلك وهم يتأملون دماء شيخهم. ألقوا نظرة طويلة على نصر الدين والعباءة السوداء التي يرتديها فعرفوه لكنهم لم ينطقوا بكلمة. على الأرض: بركة دماء حمراء، وثلاث أسنان محطمة، وبعض الشعر المنتوف، وخيط سميك من الدم يقود ناحية الزحام. سار نصر الدين إلى الزحام ووراءه بعض الأطفال، بينما سقط بعضهم الآخر هناك، وظلوا يلطمون وجوههم. لم يعرف نصر الدين ماذا يفعل، حذره عبد النعيم من التدخل وهو لم يفكر في هذا من الأصل؛ كان خائفًا من أن يعرف الناس من يكون. أنت الجاني الحقيقي، لا، بل هو الجاني المزيف. لكنك من طاردوه؟ نعم لكن هو لم يحطم المقام. وهل يعرف الناس هذا؟ لو تعرّفوا عليك لقتلوك بدلا من عبد النعيم. ما الدرس يا شيخ؟ اقتر ب نصر الدين من الحشد الغاضب أكثر، ووجدهم يتشاجرون ويتصايحون، وقد نشب الخلاف بينهم. ماذا سيفعلون بك يا نعيم؟ بعضهم يريد قتلك والبعض الآخر يرى الاكتفاء بجلدك، والخفر يأمرون بانتظار العمدة. القليل هم المتعاطفون الصامتون مثل نصر الدين والأطفال والصبيان وبعض الدراويش الصادقين. أصوات الناس تعلو أكثر وتحتد، يحتدم الجدال، لكن نصر الدين لم يسمع شيئًا، ولكن شعر بهدوء مريب، هدوء يسبق ريحًا صرصرًا عاتية. ثم سمع أخيرًا صليل خيول آت من شارع الخمارة، فجرى وألقى نظرة فلم ير في البداية سوى الغبار. ستائر من الغبار الكثيف وبينها بدأت عربة تلوح، عربة سوداء ذات أربعة عجلات يجرها حصانان أسودان. حول العربة تظهر أشباح بعض الخفر وتختفي، وهم يجاهدون للّحاق بعربة العمدة. يعلو صليل خيول أخرى

فيدقق نصر الدين النظر ويرى عربات أخرى سوداء كثيرة تجرها خيول خرافية، وتقودها الشياطين وفي أيديها أسواط ملهبة تلسع بها أظهر خيولها فتطلق صليلها المنذر بالشر. تسمرّ نصر الدين لوهلة قبل أن يجري بعيدًا عن الشارع ويختبئ، وهو يرتعش من الخوف، في الزحام.

ترجَّل العمدة من العربة، فابتعد الناس وأفسحوا الطريق، واقتر ب بخطوات واثقة من عبد النعيم المكوم في الأرض كحزمة قش. اشرأب رأس نصر الدين من الزحام فرأى العمدة وقد وضع قدمه فوق جسد عبد النعيم، وسأل الحشد: "أهذا هو؟"، فتعالت صيحات الناس الغاضبة بينما رقصت الشياطين بسعادة وجنون. رأى نصر الدين حارث يقف هناك في الجهة المقابلة، ويقف هناك أيضًا في اليسار، وهناك في اليمين. حارث يقف في كل مكان، وحين تأمل وجوه الناس وجدهم جميعًا يحملون ملامح حارث، ما عدا القليل فقط مثل الأطفال وبعض الدراويش.

عاد العمدة يسأل من جديد: "أهذا هو؟ أهذا من هدم مقام سيدنا، الولي التقي الصالح، وأراد أن يجلب علينا لعنة الله، أهذا هو؟"، فاشتد غضب الناس وصياحهم ولهفتهم للقتل، وقالوا: "نعم. نعم". لكن أحدهم قال "لا، ليس هو يا عمدة ولكن هذا هو"، وأشار ناحية نصر الدين الذي شعر بالفزع الشديد وانكمش وكاد يسقط أرضًا، وسكت الناس أيضًا لوهلة، وكتموا أنفاسهم قبل أن يعلو صوت من وراء نصر الدين: "لا تصدِّق يا عمدة، لكن هذا الرجل اللئيم مدين لي بالمال ويريد الخلاص مني". فالتقط نصر الدين الأنفاس وصاحَ العمدة فيهم صيحة واحدة، كادت

تقبض أرواحهم،: "أهذا هو"، فتعالت صيحات الناس عطشًا للدماء "نعم. نعم". وصاحَ العمدة: "فماذا أنتم فاعلون؟"، الشورى واجبة ما دام الحكم واحدًا. واختلف الناس يا عبد النعيم. البعض يرون قتلك بطلق ناري واحد، والبعض يرون قطع رقبتك، والبعض يرون جلدك حتى الموت. فماذا يرى العمدة يا ترى؟

ليلى، ليلى، أيتها التسبيحة النورانية التي ترتلها الملائكة حول العرش، يا أغنية الماء وروح الروح. يا غاية المرء في الفناء، لا حول ولا قوة إلا بك. سبحان من سواك ورفعك فوق الناس بغير باطِل أو نقصان. كيف أنت اليوم وقد نسيتك القرية، والنسيان قتل؟ تجلسين لا تزالي في الظلام وقد مالت رأسك على الجدار. لماذا منع هشام عنك الطعام ومتى؟ آه، بدأ كل شيء بعد مجيء الخواجة في تلك الليلة المحاق. ماذا قال؟ قال كل الخبايا التي يجهلها العمدة، لم ينس شيئًا على الإطلاق، اشتهاء عبد النعيم ليلى في الليل والنهار وعدد الأحلام التي ضاجعها فيها، كم عددها يا ترى؟ وكم عدد النجوم؟ وقال أيضًا إن للرجل حكايات وحكايات مع سلمى، والمصيبة أنها خارج دائرة الأحلام. شعر العمدة بغضب شديد والخوف على سلمى والكرسي. كان جليا في تلك اللحظة أن أجل عبد النعيم قد انتهى. وليلى؟ ليلى هي النور الذي يجذب الدراويش. لابد أن ينكسر القنديل، وهنا قرر العمدة أن يقبض روح الاثنين، عبد النعيم وليلى، بملاك موت واحد، فكان ما أراد.

لم تكن ليلى تشعر بأي ألم على الإطلاق، في البداية فقط كانت تشعر بذلك الألم والعطش والجوع ومثل هذه الأشياء، ثم سمتْ فوق حاجات جسدها البشري، كأنها عادت روحًا نقية في ملكوت الرحمن. لم تكن قد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد، ومع هذا تركتْ جسدها ملقًى في الظلام، وسارت على أطراف نورها في شوارع القرية، حولها الملائكة في موكب جليل، وهي تتأمل الطرقات والديار والحقول والشمس.

فك الخفر الحبل من جسد عبد النعيم، ثم ربطوه مرة أخرى من المعصم، وقد أرخوا الحبل قليلا من الأمام بمسافة كافية، وربطوا طرف الحبل بمؤخرة العربة السوداء، قبل أن تنطلق مسرعة في طريقها وهي تسحل وراءها عبد النعيم المسكين. الأرض ترابية قاسية غليظة؛ بما تحتوي من نواتئ تقشر جلده ولحمه قشرًا قشرًا، فتسيل دماؤه عليها وترويها. الأرض قاسية غليظة، عطشة لكنها تستحق. الغبار يتصاعد في الهواءِ وكذلك صيحات الناس، الخفر والرجال والشباب والنساء، وهم يعْدون وراء العربة بأقصى ما يستطيعون من أجل ضربة هنا أو ركلة هناك. يجري معهم نصر الدين أيضًا والأطفال والدراويش، جميعهم يبكون ويستغفرون الله من ذنوبهم.

توقفت العربة عند الساقية المهجورة. غريب هو أمر هذه الساقية. طوال عمر القرية المديد لم تتعلقْ بها أية خرافة من قبل، كأنها كانت تنتظر خرافة بعينها، مثل راعي غنم منبوذ أو شيخ زنديق. فوق هذه الساقية علقوا الشيخ، فابتسم عندما رآها أخيرا، كانت ليلى معلقة بجواره فوق

الساقية. وبسوط رفيع جلد العمدة الشيخ الزنديق، لم يكن زنديقًا بل نبيٌّ، كان نبيًّا كاذبًا. تتعدد الأقاويل، الناس يقولون: كان السوط غريبًا، ليس أرضيًّا بل ملهبًا رفيعًا من سياط الشياطين. بعض الدراويش يقولون: رأينا سلمى تجلد هشام أيضًا، لكن آخرين ينكرون هذه الأقاويل ويقولون: كان سوطًا عاديًّا مثل أي سوط آخر. تتعدد الأقاويل لكنها تلتقي في نقطة واحدة، وهي: أن نعيم لم يصرخ قط. يقول بعض الناس: كان قد مات، ويقول الدراويش: بل كان قد غرق تمامًا في عيني ليلى؛ فلمْ يشعرْ بالألم، ثم نظر بعدها إلى الغريب مودِّعًا. يقول الناس إن الغريب لم يبك أيضًا، بل نظر نحو الشيخ في إيمان عظيم. يقول الدراويش: بل بكى كثيرًا وكذلك نحن والأطفال. وسقطتْ دموع الغريب على وردة مدهوسة؛ فأزالت عنها السحر وأعادتها فتاة جميلة، ذات عينين خضراوين. تتعدد الأقاويل، تتعدد الأقاويل لكن الناس قد اتفقوا رغم كل شيء على أن الساقية المهجورة قد سكنت بعفريتين: امرأة ودرويش.

2012 / 10 / 8